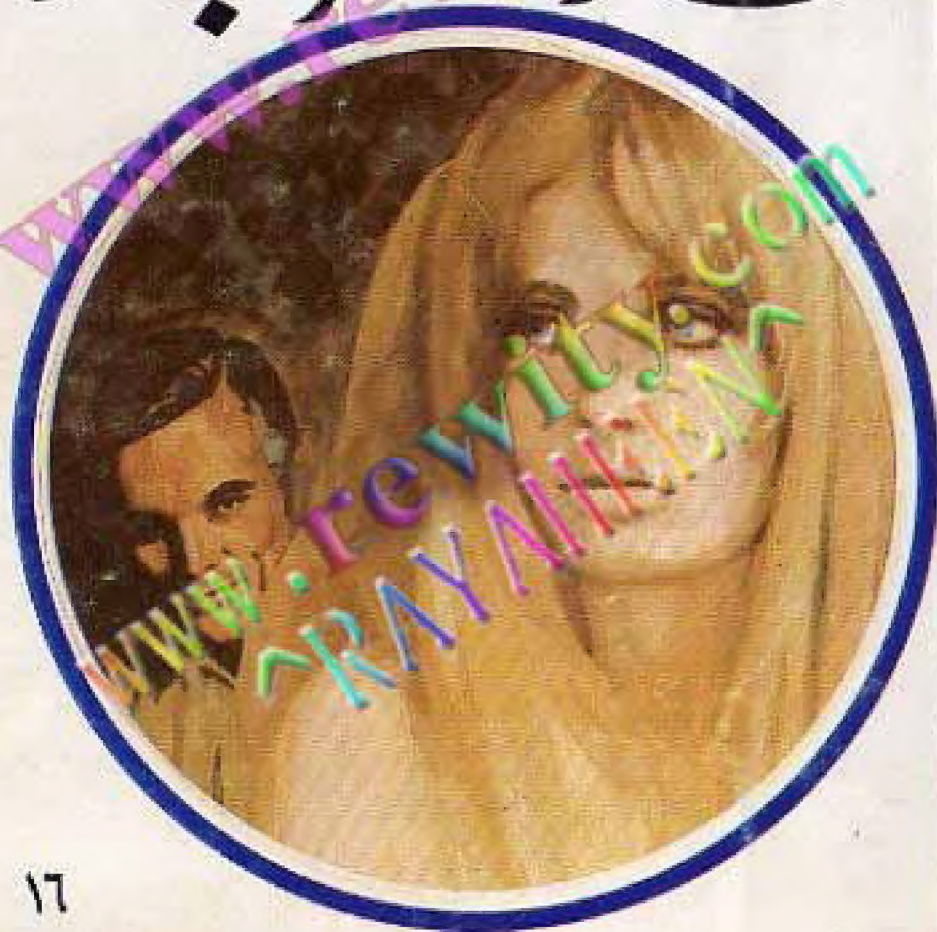


روایات عبری



آت هامیسٹون

لقمان والغرباء



روايات عبر

لقاء الغرباء

كلنا غرباء في هذا العالم ... الحب وحده يختصر المسافات ،
يغير الثوابت ... يبدل الاحوال ... يجعل المحال ممكنا ... والممكن
مستحيلا ... هيلين وليون وروبرت هذا الثلث الشديد التناقض
والمتنافر من الاشخاص ، يجتمعون تحت سماء قبرص الحارة
وبينهم يتمايز صغيران لا يعرفان ما يجري ... الا انه الحب ...
يلفهما ايضا بخيوطه الساحرة وينقذهما الى الابد من الضياع ...
لكن هيلين الانكليزية الغريبة هل تستسلم لزوج فرضته
الظروف أم تستجيب لأبن بلدها روبرت الرقيق ، المهذب ،
الذي يفهم طبيعتها ويشايعها في كل شيء ؟

١- العرض والطلب

اضطرت هيلين الى الاعتراف بأن العرض جذاب، وهي ترمق صديقتها باهتمام ... نفقات سفرها الى جزيرة قبرص الجميلة وعودتها، بالإضافة الى مصاريفها وثمان وقتها، كل ذلك مقابل اصطحابها طفلين في الرحلة، وتسليمهما بسلام الى عمهما ليون بيترو وهو قبرصي يوناني يقيم في قرية لابيتوس الجبلية الجميلة، على مسافة ثمانية أميال من كبرينيا، في الساحل الشمالي للجزيرة.

قالت، ورمضة حماس واهنة تمحو الأسى عن وجهها وتكسبه جمالا ناعما ورقيقا:

"كان لطيفا منك أن تفكري بي، فأنا - كما تعلمين - لم أحصل على اجازة منذ ثلاث سنوات تقريبا."

"لهذا السبب بالذات فكرت فيك حين أطلعني أصدقائي على الوضع، ستكون فترة استجمام رائعة بعد مرضك، ونوفمبر تشرين الثاني شهر بديع للترويح عن النفس - الحر فيه ليس شديدا وهكذا تستطيعين السباحة في البحر - والاستلقاء في الشمس على الرمال - وأنت عندك هناك صديقة لا بد أن تستضيفك أسبوعا أو اثنين."

تناولت هيلين فنانج بريندا وصحتها، وسكنت لها مزيدا من الشاي قائلة:

"ترودي ستفرح للزيارة. اعتقد أخبرتك بأنها متزوجة من قبرصي."

واستأنفت عندهما أومأت بريندا برأسها:

"لهما مسكن على مشارف نيقوسيا، يبدو جميلا حسب الصور التي أرسلتها الي."

كانت ترودي صديقة قديمة لها في المدرسة ولم ترها هيلين منذ زواجها - منذ ست سنوات - من الشاب المليح ناسوس، الذي التقت به في اجازة في قبرص. ولكنهما اعتادتتا المراسلة بانتظام، ودعتها ترودي عدة مرات للذهاب

الى الجزيرة، لتقضي عطلة معهما، وكانت هذه فرصة رائعة، وزادت هيلين لهفة وهي تسأل صديقتها عن مزيد من التفاصيل.

"قيل في البداية، أن أباهما كما ذكرت سيقادر المستشفى سريعا، فوافق صديقاى - وهما جاران له - على إيواء الطفلين. ولكن اتضح أنه سيمكث في المستشفى عدة أشهر، ولا يستطيع، بيل وجين رعاية الطفلين لأجل غير مسمى، فبيتهم صغير، ولهما ثلاثة أطفال يافعين، لهذا تقرر أن يذهبا - في الوقت الحالي - الى عمهما في قبرص."

وأخذت بريندا ترتشف الشاي، واستغرقت الفتاتان في التفكير هنيهة وعادت بريندا تقول وهي تطلق ضحكة قصيرة: "عمهما، فيما علمت، وافق على مضيض أن يكفلهما، فيبدو أنه لا يعيل كثيرا الى الأطفال، ومن الواضح أنه عدو للنساء أيضا، ويبدو أنه لا يسر أحدا بصحته."

قالت هيلين موافقة، وهي تعبس قليلا لفكرة اضطرار طفلين صغيرين للحياة مع رجل هكذا:

"من المؤسف ألا يستطيع صديقك الاستمرار في رعاية الطفلين."

تناولت بريندا رشفة أخرى، قائلة:

"إن هذا مستحيل."

وبعد هنيهة تمت هيلين وكأنها تحدث نفسها:

"وهو أيضا لا يحب النساء."

وتذكرت سلوكها الشخصي نحو الرجال، مستغربة لحظة سبب ذلك، ثم تساءلت:

"ترى هل أساءت اليه امرأة ما؟"

"واضح أنه يكره النساء لما فعلته زوجته أخيه التي رحلت مع شخص آخر، تاركة زوجها والطفلين. كان تشيبي في الثامنة وفيونا تصغره بسنة. كان تصرفا أنانيا بشعا، ولكن بعض النساء قاسيات تماما."

ودار في خلد هيلين أن بعض الرجال هكذا. واستغرقت في الصمت وهي تفكر في سنواتها الثلاث مع غريغوري. كان زواجا طبيعيا هائلا، أو هكذا اعتقدت. ولكن، عندما وجد زوجها ميتا وسيارته محطمة، كانت معه فتاة من مكتبه. وقال أحد الأصدقاء: "إن الزوجة آخر من يعلم دائما". وغشيت هيلين مرارة بالفة، ثم اضطرت الى قبول الحقيقة وهي

أن علاقة زوجها بالفتاة ترجع الى أكثر من عام. وكانت هذه النهاية بالنسبة اليها، وفقدت ثققتها بالرجال نهائيا - وأقسمت ألا تطمئن لواحد منهم مرة أخرى، أو تتيح لأحدهم فرصة ابتلائها بمثل هذه التعاسة ثانية. وجلبت عليها الصدمة مرضا طويلا، وخطيرا، لم يمتص قواها البدنية فحسب، بل أفقرها ماليا. ثم تحسنت صحتها بعد عامين، وأصبحت تأمل أن تشغل منصبا في المكتب حيث كانت تعمل قبل الزواج. ولكن المنصب لن يخلو إلا بعد عيد الميلاد، ولهذا السبب كانت حرة في انتهاز هذه الفرصة لزيارة قبرص.

وسالت عندما خطرت لها الفكرة بغتة:

"ما عمر الطفلين الآن؟"

"تشيبي في الثامنة، وفيونا في السابعة ... وهما مفعمان بالحيوية، ومن ثم فسيتكسبن المبلغ لقاء جهد."

وأجابت هيلين في حزن، وقد غامت عيناها الزرقاوان إذ تذكرت طفلها:

"لا ينبغي أن أتوقع أجرا بدون جهد ..."

لو أن طفلها عاش لكان الآن في الرابعة ... ولكنها هي وغريغوري لم ينمعا به لأكثر من ستة أشهر ... وأردقت:

"إنني - في أية حال - أحب الحيوية في الأطفال."

قالت بريندا محذرة، وهي تبتسم:

"أخشى أن هذين الطفلين يفيضان بحيوية كبيرة. والأرجح أنهما سيضجران قبل نهاية الرحلة بكثير. تعرض أبوهما يوما لحادث سقوط طائرة، وهو يرفض - لهذا السبب - إرسالهما بالطائرة. على أنك تستطيعين العودة جوا. هذا إذا راق لك هذا العرض."

فأسرعت تجيب:

"إنه يروق لي. ولكنني سأحتاج الى أن أرى والد الصغيرين ... أجل، في المستشفى، سأخبر بيل ليعد لقاء."

★ ★ ★

وإذ أحدثت هيلين أثرا طيبا في نفس الأب، اصطحبتهم بريندا لرؤية الطفلين، وقبل أن ينقضي أسبوع كانت هي والطفلان على الباخرة كنوسس متجهين الى قبرص،

بعدها سافروا بالقطار الى اثينا .
كان الطقس جميلا ، والسماء صافية زرقاء ، والبحر الابيض
المتوسط أقرب الى بحيرة منه الى البحر . وصاحت فيونا وهي
تشير الى رودس :

" أهذه هي ؟ "

كانت الشمس تغرب خلفها ، وشاب البحر خط من الضوء
المتوهج امتد من الجزيرة حتى السفينة تقريبا . فرمق تشيبي
أخته باستخفاف وقال :

" كيف تكون هذه ؟ نرسو على البر قبل صباح الغد . "

كان الطفلان يقفان عند الدرابزين مبهورين بغروب شمس
الشرق العجيب ، وأخذت هيلين تراقبهما نساهمة من مقعد يبعد
قليلًا ، فحوالي الساعة العاشرة من الصباح التالي ستودعهما
الى الأبد . كان هذا الخاطر يلقي عليها شعورا غريبا من
الشجن - وأدهشها أن الطفلين احتلا مكانة في قلبها بهذه
السرعة . ومع هذا الادراك ، انتابها قلق شديد يصدد
مستقبلهما ، وعلاقتها بعمهما الذي يكره النساء والصغار
معا . كيف سيكون حالهما ؟ وما ليئت أن أزاحت عنها
هواجسها ، وهي تلوم نفسها قائلة بعزم إن واجبها يقتصر
فقط على تسليم الطفلين الى عمهما ، فإذا أنجزت هذه
المهمة ، وأصبحت حرة في الاستمتاع بأجازتها فوق الجزيرة .
وما يحدث لتشيبي وفيونا في نهاية الأمر لا يعينها في شيء .
قالت فيونا وهي تلتفت باسمة باسطة يدها :

" تعالي وانظري يا سيدة ستوارت ، تأملّي الضوء المتألق على
الماء . "

ألقت هيلين كتابها على المقعد ، ونهضت متجهة نحو
الدرابزين وأمسكت باليد الممتدة . كانت صغيرة ودافئة
والتفت الأصابع حول راحتها وشعرت هيلين بوخزة في قلبها ،
إذ تذكرت أن الطفلة لم تعرف حب الأم .
قال تشيبي وهو يمد يده الى يد هيلين الثانية اقتداء
بأخته :

" اليس جميلا ؟ ... يبدو كأن البحر يحترق . "

قالت هيلين وهي تلاحظ سرعة هبوط الشمس :

" إنه جميل جدا حقًا . "

كان القرص يزداد هبوطا وهم يتأملونه ، حتى أن الخط
الناري على البحر أخذ يتباعد سريعا عن السفينة ويزداد

قربا من الجزيرة . وتطلعت فيونا الى هيلين وسألت في حيرة :
" الظلام يحل ... لماذا يهبط بهذه السرعة ؟ "

ولما كان من العسير أن تفهم ، اكتفت هيلين بالقول أن
الشمس في هذه الجزء من العالم تغيب بسرعة ، ولذلك يهبط
الظلام على نحو مفاجيء .

وبدا الاستياء على وجه فيونا وهي تقول :

" لن نستطيع اللعب في الخارج مساء . وما أظنني أحب هذا . "

فقال تشيبي :

" بل ستحبين ... انظري مدى الدفء . كان البرد في الوطن
يحرملك اللعب خارج الجدران ، في أية حال . "

وأقرته هيلين وهي تعجب للتعبير الذي بدا على وجه فيونا .

" ستعودين الى الثياب الصيفية وتستطيعين أن ترتديها على
مدار العام . "

واتسعت حدقتا فيونا العسليتان وقالت :

" على مدار العام ؟ اليس لهم شتاء هنا ؟ "

وهزت هيلين رأسها ولكنها قالت :

" فترة الشتاء قصيرة جدا ، والطقس لا يزال دافئا . "

ظلوا يتأملون في صمت والسماء تزداد ظلمة ، ثم أطلقت
فيونا زفرة أسي :

" ليتك تمكثين معنا يا سيدة ستوارت . فلا تتركتنا مع العم
ليون . "

وقال تشيبي :

" العم ليون مروع ... لن يدعك تفعلين شيئا . "

وأضافت فيونا :

" إنه يجعلك تلتزمين الهدوء ... "

" فإذا لم تلزمي الهدوء ، نظر اليك هكذا . "

وقطب تشيبي أساريره حتى لم تتمالك هيلين نفسها من

الضحك ، وإن عاودها القلق على سعادة الطفلين . وقالت :

" أنا واثقة أنه ليس بهذا الشكل ... "

ثم أردفت في فضول :

" إذن فقد رأيتما عمكما ؟ "

أجابها الصبي :

" لقد جاء لرؤيتنا غير مرة . "

فقطعت فيونا كلامه قائلة:

"مرتين فقط يا تشيبي..."

ولكن الغلام هز رأسه وقال:

"ثلاث مرات. إنك لا تتذكرين المرة الأولى لأنك كنت صغيرة..."

"إنني لا أصغرك بأكثر من سنة..."

"ما كنت إلا وليدة حين جاء أول مرة... ولكني أتذكره لأنه قال لأبي أنني أستحق صفة..."

"يكن ليون بيتر. كان أسمر وقصيرا، ولكن ابتسامته كانت تلقائية وودية. وقال لماذا؟ ماذا فعلت؟"

"لا أتذكر. ولكن أبي قال أن عمي ليون لم يكن يفهم الأطفال..."

قالت فيونا وهي تشد قبضتها على يد هيلين:

"ولكنك تفهمين الأطفال يا سيدتي، ألا تستطيعين البقاء معنا؟"

"أخشى ألا يكون هذا ممكنا يا عزيزتي فيونا..."

"هل لأنك لا ترغبين؟"

"هل تمكثين إذا طلبنا منه أن تبقى؟"

ابتسمت هيلين لطريقة تشيبي في السؤال، وقالت إنها متأكدة من أن عمه كلف شخصا برعايتهما.

قالت فيونا بالحاح في لهجة ملاطفة:

"ولكننا نريدك أنت. لماذا يجب أن تعودتي؟ هل لك أولاد؟"

فاجابت هيلين:

"كلا ليس لي أولاد..."

وكان فيونا أحست - بطريقة الأطفال - بالأسى في لهجة هيلين، لأن قبضتها اشتدت على راحة هيلين، وردت هيلين بضغطة صغيرة تنم عن الحب. وقالت مشيرة نحو الجزيرة، لتحول انتباههما:

"انظرا، هل تريان القلعة؟"

ولكن أيا منهما لم يبد اهتماما، ولغشيها اكتئاب عندما أدركا مدى اقترابهما من نهاية الرحلة. ولازمهما الحزن أثناء العشاء وعندما راقبتهما هيلين تساءلت: "كيف يمكن أن يوصفا بالحيوية..."

وعندما أوا إلى قمرتهما حاولت أن تخرجهما من وجومهما قائلة، إن إقامتهما مع عمهما موقوتة، وإنهما سيعودان إلى أبيهما بعد أشهر قلائل.

سألها تشيبي وهو يأس أن يتعزى:

١٠

"هل ستعودين إلى الوطن رأسا بعد أن تفارقينا في الصباح؟"

فقالت وهي تميل لتسوي غطاء الفراش فوقه:

"سأقضي إجازة أولا مع صديقة لي في قبرص، ثم أعود إلى إنكلترا..."

"كم من الوقت ستمكثين هنا؟"

قالت في لهجة غير واثقة:

"قد أمكث أسبوعين..."

رغم أنها أبرقت لتبلغ بنبا قدومها، فإنها لم تتلق ردا. ولكنها فكرت أنه من المحتمل أن يكون الرد وصل بعد سفرها، وهي تامل في ألا تكون زيارتها مصدر مضايقة لترودي وتاسوس.

* * *

لأدت الجزيرة للأنظار، حين صعدت هيلين إلى سطح السفينة في الساعة صباح اليوم التالي، تاركة الطفلين نائمين. كان خط من النار يشق الأفق منبعثا من الشمس البارغة من وراء حافة العالم. وكانت السفينة تتجه شرقا على طول الساحل الجنوبي، ولكن على مسافة منه. وقال شخص ما:

"هذه بافوس..."

والتفتت هيلين... أنه روبرت ستوري المرح المسافر وحيدا عائدا من زيارة الأبويه في إنكلترا. قضى وقتا مع هيلين والطفلين وشاركهما المائدة في الوجبات، وحالسهن على السطح، الذي كان لهم وحدهم تقريبا، فكان المسافرون نفرا قليلا، لأن شهر نوفمبر / تشرين الثاني أقل شهرة السنة حركية. وعاد روبرت يقول:

"ستنقضي ثلاث ساعات تقريبا قبل أن نرسو..."

ومرة أخرى ألقت هيلين نظرة إلى الجزيرة، وقالت في دهشة:

"كل هذا الوقت؟ إنها تبدو قريبة جدا..."

قال:

"بافوس تبعد مسافة كبيرة عن ليماسول وبافوس - كما ترين - على الجانب الغربي للجزيرة..."

واقترب من هيلين ولم يستعد. فرغم عدم

اكتراثها بالرجال لم تتمالك أن تترجح إلى روبرت، بعينه الصافيتين الزرقاوين وقسماته الصريحة أخبرها أنه أعزب وأنه أحب الجزيرة بعدما قضى عليها أجازة طويلة، فاشترى كوخا صغيرا على سفح تل، وحوله بمهارة إلى بيت للإقامة. وكان رساما. ومن الغريب أنه كان يعيش في لابييتوس، وقد عرف بيثرو معرفة عابرة.

قال عندما ذكرت سبب قدومها:

"إنه شخصية صلبة، متشبث بالعزوبية، ولكن له وسائل لهوه طبعاً."

وتضرج وجه هيلين، فضحك روبرت، وزادها حرجا عندما أضاف أن أي قبرصي لا يستطيع أن يعيش بدون امرأة. وأردف قائلا:

"سيقولون لك بصراحة إن الطقس هو عذرهم. أو بالأصح "تفسيرهم". لأن القبرصي لا يحلم قط بالتماس الاعذار لمسلكه."

سأله هيلين بفضول حتى تتصور البيت الذي سيذهب إليه الطفلان:

"ما شكل بيته؟"

فأجاب بلهجة تنم عن إعجاب:

"يا له من بيت! مشيد على ركائز على سفح الجبل شبيه ببيت خلوي بنغالو أبيض كبير، لكل حجرة شرفة، تطل من الخلف على سلسلة جبال كيرينيا، ومن الأمام على السهل الساحلي، وأشجار البرتقال والليمون وأنواع أخرى، ثم البحر الأزرق المتراحي. ومن الشرفات الجانبية ترين منظرا شاملا للجبال والبحر. إنه جميل جدا في الواقع، شاعري وخرافي بدرجة لا تناسب شيئا أعزب مثل ليون بيثرو."

"تقول شيئا؟ كنت أظنه شائبا."

هز روبرت كتفيه وقال:

"لعله في أواخر العقد الثالث، ويجوز أن أضيف أنه وسيم جدا. ولكنه محاط بجو من العجرفة يكسبه - كما قلت - مظهرا صارما صلبا."

فغمغمت هيلين، غير مطمئنة إلى احتمال أن يكونا بخير معه:

"أمل أن يكون الطفلان بخير معه."

فكان رده مثقلا بالشك:

"لا أدري. يدمشني أن يأخذهما - إذ يقال في القرية إن الصبر والفهم ليسا من خصاله. وأظن كل رجال الأعمال الشديدي المراس على هذا النحو، فالمال، - فيما يبدو - هو همه الوحيد في الحياة. سألته:

"وماذا يعمل؟"

فأجاب:

"من أعماله أنه يمتلك عدة مصانع للتعبئة في فاماغوستا، حيث تعبأ الفاكهة وتعد للتصدير. ثم يتجر في الأرض، ويمتلك مساحات كبيرة في أرجاء عديدة من الجزيرة، وأي شخص يمتلك أرضا هنا - في هذه الأيام - يمكن أن يصبح مليونيرا بين عشية وضحاها."

وجدت هيلين نفسها تزداد قلقا - عندما أمدها روبرت ببضع تفصيلات عن مسلك هذا العم القاسي، الذي بدا وكأنه لا يحب إيواءهما في بيته. ولكن لم يكن في وسعها أن تفعل شيئا، فعادت هيلين تؤنب نفسها وقررت بحزم ألا تفكر في الأمر... وأخرجها من تأملاتها صوت روبرت يقول:

"هيا تأملي تلك الشمس والسما... إنها جزيرة رائعة، ومن المأسف أنك لن تعيشي هنا."

وسكت لحظة ثم تابع الحديث قائلا:

"ولكنك ستمكثين أسبوعين... هل أستطيع أن أصطحبك في جولة في أي وقت؟"

ابتسمت هيلين وقالت:

"ساكون مع أصدقائي... ولكنني أشكرك في كل حال."

لم تكن راغبة في صحبته، ولا صاحبة أي رجل، ولكنها لن تخبره بذلك. وعادت تقول:

"سيكون مركز إقامتي في نيقوسيا، وأتوقع أن ننطلق في جولاتنا من هناك... إذا كان لصديقتي هي وزوجها من الوقت ما يسمح باصطحابي."

هز روبرت كتفيه ثانية، وقال إنه سيعطيها رقم هاتفه، للتصل به في أي وقت تجده فراغا. فشكرته بدون أقل نية في أن تغيد من عرضه. وكان الأثر الذهبي اللامع أخذ يتلاشى - في تلك الأثناء - إذ ارتفعت الشمس، مرسله سهامها خلال لثف السحب الصغيرة الطافية كنقاب فضي عبر سماء زاهية الزرقة. وألقى انعكاسها صفاء على النور،

وبدت الجزيرة وكأنها على مرمى حجر. لم تكن هناك تموجات في البحر، فلم تكن السفينة تهتز أقل اهتزاز، وهي تواصل تقدمها على طول الساحل الجنوبي للجزيرة. فقالت هيلين أخيراً:
 "يجب أن أذهب لأعني بالطفلين. من المؤكد أنهما استيقظا الآن."



رست كنوسوس في ليما سول الساعة العاشرة وكانت هناك سيارة تنتظر. ولكن هيلين أدركت حتى قبل أن يحرك تشيبي - أن الرجل الذي اقترب منهم لم يكن ليون بيترو. كان أسمر وقصيرا، ولكن ابتسامته كانت تلقائية وودية. وقال الرجل:
 "هل أنت السيدة ستوارت؟"

وايتسم للطفلين، وداعب شعر فيونا بيده وهو يقول عندما أومات برأسها:

"أوفدني السيد بيترو. إنه لا يستطيع الحضور بنفسه، لأنه مضطر للبقاء بسبب عمله. لهذا، سأصحبكم إليه."
 "هل قال يجب أن أصحب الطفلين؟ فهمت أنني سأفارقهما هنا، في ليما سول."

وعندما زحفت يد صغيرة إلى يدها، أطلت لترى نظرة توسل، على وجه فيونا الجميل. وبدأ الرجل مترددا لحظة ثم قال:

"هذا ما قاله. اتظنينني أرتكب خطأ؟ كلا..."

ولكنه هز رأسه بسرعة وقال:

"لست مخطئا قال للموظفة في مكتبه أن تتصل بالفندق، وتحجز مائدة لأربعة للغداء. عندئذٍ شعرت هيلين بتوتر قبضة فيونا يسترخي فابتسمت لها بحنان. وبدأ تشيبي هو الآخر سعيدا، وأشرق وجهه الملء بالنمش، فقالت ببشاشة والرجل يفتح باب السيارة:

"هيا إذن... إلى أين نذهب؟ ليس إلى لا بيتوس؟"

"كلا إلى نيقوسيا، فهناك مكتب السيد بيترو."

كانت فرصة سانحة إذن، فكانت هيلين تتوقع أن تستقل سيارة أجرة إلى مسكن ترودي.

مكتب ليون بيترو خارج مركز المدينة. إنه مبنى جديد ذو شرفة واسعة، وبدا أشبه بفيلا حديثة منه بمكتب. وأبدت هيلين دهشتها عندما غادر السائق مقعده، وفتح الباب، وسألها، رغم اهتمام الطفلين اللذين وقفا بجوار السيارة حزينين، مع أن هيلين كانت لا تزال معهما:
 "هل أنقل حقائبك؟"

فقالت:

"لقد يحسن تركها في السيارة بضع دقائق، فساظطر لأن استقل سيارة أجرة."

وبعد لحظة كانت هيلين في مكتب أنيق، تقف أمام مكتب، وتطلع إلى ليون بيترو الذي نهض عن مقعده عند دخولهم، وبسط يدا إلى هيلين، فمدت يدها، وشعرت بقوة قبضته وهو يلول في لهجة هادئة مهذبة:

"مرحبا الخير يا سيدة ستوارت. لعل رحلتك لم تكن مضيئة." كانت له لكمة خفيفة لا تكاد تلاحظ. قالت:

"استمتعت بها كل الاستمتاع. شكرا لك يا سيد بيترو."

ولم تسم وهو تسحب يدها، بينما وقف لحظة يرمقها في سمت. ثم تحولت عيناه إلى الطفلين. وتذكرت هيلين أنها لا تثق قائلة إن عمهما لا يمكن أن يكون بالقسوة التي عوراما لها. ولكنها الآن أيقنت أنهما وروبرت كانوا على أبواب في وصفهم له. ولاحظت جمود وصلابة قسماته السمراء، وخطوط خديه وفكه، وانطباق فمه، والوميض البارد لعينه اللتين لاحتا - وهو يقف في الظلال - سوداوين أكثر منهما اصطبغا باللون البني الداكن المميز للقارصة من يونانيين وأتراك. أما شعره فكان منسقا لامعا، أسود يمسح الشيب خفيفا عند الصدغين. قال روبرت إنه وسيم، ولكنه بخسه حقه، إذ كان بالغ الوسامة، غير أن تعبير القسوة والشراسة كان يشوب وسامته. ولم يكن من العسير التصديق أنه يكره النساء والأطفال.

قال وهو يوليها انتباهه ثانية:

"يسعدني أن أسمع هذا، كنت واثقة - لمعرفتي بابني أخي -

من أنهما سيسيبان لك بعض المتاعب."

ورمقها بحدة - وهو يتكلم - ثم أردف:

"يجب أن أشكرك إذ أحضرتكما إلي بسلام."

سؤاله، وبصره ثابت عليها، فأحست بأن الكذب مستحيل،
واكتفت بأن قالت:

"الرحلة تتيح لي قضاء عطلة هنا في نيقوسيا، مع صديقة
لي."

ورأته يخرج من حافظته بعض أوراق مالية، فقالت:
"إنني قانعة تماما."

فقال:

"هذه عملتنا طبعاً، ولكنك ستجدين أن جنيهاً معادل للجنيه
الانكليزي، كما ستجدين أن الاسعار في المتاجر كثيراً ما
تحدد بالعملة الانكليزية بجانب عملتنا المحلية."

وناولها النقود، ففتحت قمها بهم بالرقص، ولكن شيئاً في
أساريه جمد الكلمات على شفتيها. وهو يضيف:

"أظن هذه تكفي لتغطية أية نفقات تكبدتها أثناء السفر."
ووجدت هيلين نفسها تقبل النقود، وإن كان ذلك رغم
ارادتها، إذ أيقنت أنها تأخذ أكثر مما أنفقت. تمتمت وهي
تضع النقود في حقيبتها:

"شكراً لك."

وكان الطفلان يرمقانها منتظرين للإمساك بيديها. وعندما
لاحظ عموماً ذلك، وجه اليهما كل اهتمامه، وانفجرت شفتاه -
بمعجزة ما - عن ابتسامة، وقال:

"كيف استمتعتما برحلتكما، هل شعرتما بتعب في القطار؟"
لم يخص بالسؤال أحدهما، ولكن تشيبي تولى الإجابة:

"لنما ليلاً فوق الاسرة المعلقة، وكان سريرى أعلى الاثنين
وأرادت فيونا أن يكون لها، لكنها خافت من السلم."

"لم أخف، إنما أردت النوم قريبة من السيدة ستوارت."
"وفي النهار... ألم تشعرنا بملل لطول الرحلة؟"

"أحياناً كنا نضجر، ولكن السيدة ستوارت قصت علينا
حكايات، ثم لعبنا بعض ألعاب الورق..."

وابتسمت فيونا لعمها في تردد، وهي تقول:

"أحضرت بعض كتب القصص أيضاً، حتى نقرأ..."
ولكنه لم يبد أنه لاحظ ابتسامتها، وتجاهلت في عينيه
السوداوين دهشة وهما تتجهان الى وجه هيلين. وتساءل:

"كيف فكرت في أشياء مثل هذه؟"
فقالت:

"توقعات أن يشعرا بالملل."

وشعرت هيلين بالغضب من كلماته الأولى، فقالت بحدة
تفوق ما كانت تعتزم:

"لم يسبب لي أية متاعب يا سيد بيترو. استمتعت بالرحلة
تماماً كما قلت."

وأومضت بحرفته من نبراتهما المقتضبة. واعتاظت هيلين
عندما شعرت بتضرج وجنتيها. كان هذا الرجل مثيراً
للارتباك، شعرت أنها تستطيع أن تكرهه دون أي جهد.

كان سؤاله عن الرحلة، وشكره أمراً سطحياً نابعا من الحاجة
لابدء المجاملة وحسن الأدب، ومرة أخرى، شعرت هيلين بقلق
عميق إزاء حياة الطفلين معه. وعجبت من نفسها قهما غريبان
عنها تماماً، ولن تنقضي دقائق حتى تودعهما نهائياً، وليس
في نيتهما قبول دعوة ليون بيترو للغداء... أسبوع واحد؟

مستحيل... ولكن هكذا الاطفال يسيطرون على قلب الكبير
المتفهم بأعجب الطرق، لا سيما إذا كانوا مثل فيونا وتشيبي.

وبتصميم على دفع الاضطراب الذي بدأ يمتلكها، سألت
عمهما كيف تستأجر سيارة، فقال:

"ما أحسبك سترحلين في الحال! كنت أعزم اصطحابكم
جميعاً للغداء..."

وقالت:

"شكراً، ولكن..."

لولا أن تسالت يد فيونا الى يدها، ثم أحست بيد تشيبي
باردة، فشعرت بغصة في حلقها. لم يكن عموماً قد وجه كلمة
واحدة إليهما، ولدهشتها، وجدت نفسها تقول:

"يسرني تناول الغداء معكم."

ولم يزد بل أوما برأسه اعترافاً بقبولها، بينما قال:

"هناك أيضاً مسألة دفع ما يستحق لك. أعتقد أن أخي دفع
مقدماً أتعابك ولكن نفقاتك ما أمرها؟"

قالت:

"إن السيد بيترو أعطاني مبلغاً اضافياً فتساءل:
"هل هو كاف؟"

قالت:

"نعم - نعم، أشكرك."

ما كانت تود التردد، ولكنه لاحظته، فعاد يكرر

ودار بخلدما أنه ما كان ليفكر في مثل هذا الاستعداد وكان من الطبيعي أن يلقي عناء معهما .
قال:

"يبدو أنك بالغة الكفاءة يا سيدة ستوارت ."
وتوقف لحظة ثم قال:
"هل أنت متزوجة؟..."

كان الفضول في نبراته وعينييه . ولعله استنتج أن لها زوجا ، فعجب كيف تقوم برحلة كهذه وحدها . فقالت بهدوء:
"أرملة ."

وغمغم معتذرا ، ثم أردف:
"إنك أصغر من أن تكوني أرملة ."
وقالت هيلين:

"أنا في السادسة والعشرين . ومات زوجي منذ سنتين ، في حادث " واعتذر ليون مواسيا مرة أخرى ، ثم سألها إذا كانت أنجبت أطفالا ، فردت وقد بدت في صوتها بحة مفاجئة:
"مات وليدنا وعمره ستة أشهر ."

كانت تسأل نفسها دائما: "هل كان غريغوري يظل بجانبها لو أن ابنهما حي؟"
كان اعتذار بيترو مفاجأة لها ، إذ بدا أن صوته فقد بعض حدته:

"أسألك المعذرة يا سيدة ستوارت . صادفت حياة محزنة لشابة في سنك ."

وأصغى الطفلان باهتمام . كان واضحا ، أنهما يفهمان ، إذ سألها فيونا:

"هل مات أبوك يا سيدة ستوارت؟"

فلما ردت بالإيجاب ، شد تشيبي على أصابعها ، وسألها:
"وابنك الصغير؟"
فقالت:

"نعم ، وابني كذلك"

ورمق ليون الطفلين بنظرة عابسة ، وقال:

"لا توجهها مثل هذه الأسئلة . . . ينبغي ألا تجيبيهما يا سيدة ستوارت ."

فابتسمت قائلة:

"لا عليك . . . أنا لا أمانع البتة ."

وكانما كان ليون يهيم بالتعليق على ذلك ، ولكنه عدل ، وأرسل يطلب مرطبات لهم . وبعد ساعة ، كانوا في الهيلتون يتناولون الغذاء وعندما خرجوا الى السيارة سأل ليون هيلين عن عنوان صديقتها ، وعندما تأمل الورقة التي قدمتها ، قال:
"سأق لك الى هناك . نعم - انه ليس بعيدا عن هنا . وشكرته هيلين برقة وهي تستقر بجوارده ، قائلة:

"إن مثل هذه المساعدة تهون على المرء وهو في بلد غريب ."
وأخذ الطفلان يحدثانها ، ولكن الاكتئاب كان يبدو في لهجتها وشعرت هي نفسها بتعاسة أودت ببريق الاجازة التي كانت تتطلع إليها بشوق .

قال ليون وهو ينحرف نحو طريق آخر:
"ها هو ذا الطريق ."

وخفضت سرعة السيارة ، وهو يتفرس في المباني البيضاء الناصعة ، ثم قال:

"إنه في هذا الجانب . . . آه ها هو !"

وشهقت هيلين عندما خرجت من السيارة . كان المسكن ضمن مجموعة من ست عمارات واكن نافذة شرفة تتدلى منها الازهار . وعلى الارض - حيث فناء مليء بأشجار مثقلة بالبرتقال ، صف كبير من السرو يفصل العمارة عن العمارات المجاورة لها . قالت:

"سأخذ حقائبي ."

وانتظرت أن يفتح السيارة ، ولكنه نصحها بأن تتأكد من وجود صديقتها أولا .

وتساءل تشيبي ، وهو مصر على أن يلازمها لآخر لحظة:

"هل نستطيع أن نأتي معك؟"

والتفتت هيلين الى عمهما ، فاذا به - لدهشتها - لا يمانع ، وتبعها الطفلان صاعدين الدرجات الى الطابق الاول ، حيث كان مسكن ترودي وتاسوس .

وأطلت امرأة من المسكن المجاور ، عندما همت هيلين بقرع الجرس للمرة الثالثة:

"أتريدين مدام باولو؟"

"نعم . . . أتعرفين أين هي؟"

تأملتها المرأة لحظة ، ثم رمقت الطفلين واحدا بعد الآخر ، مما ذكر هيلين بما كتبت ترودي حال مجيئها الى قبرص

لتقيم فيها:

"انهم أليفون، ولكنهم يحبون التدخل في شؤون الغير".
ذهبت مع زوجها الى مصر. اضطره العمل للذهاب، فرحلا
الاثنين الماضي".

وغاص قلب هيلين، وتساءلت:

"هل تعرفين متى سيعودان؟"

هزت المرأة رأسها أسفا وقالت:

"سيتقيان شهرين، هل جئت لزيارتكما".

فقالت هيلين:

"نعم، نعم، جئت من انكلترا".

وطفي عليها استياء مرير. جاءت كل هذا المسافة، ولا ترى
ترودي".

قال تشيبي لعمه بعدما عادوا الى السيارة:

"صديقة السيدة ستوارت رحلت الى الخارج".

وأضافت فيونا:

"لن تعود قبل شهرين".

وأشاحت هيلين بصرفها. كان الطفلان مقتبطين، وتساءل
لتشيبي بلهفة:

"هل تستطيع أن تمكث معنا حتى تعود صديقتكما؟"

سارعت تقول:

"كلا يا تشيبي، لا أستطيع أن أمكث هنا شهرين".

والتفتت كاسفة البال الى ليون قائلة:

"أكون ممتنة اذا أوصلتني الى فندق".

ورفض في حزم قائلا:

"كلا، سوف تقيمين في منزلي".

"ولكن... كلا لا يمكن أن أضيئك هكذا".

ومست خط فمه القاسي ابتسامة واهنة، وقال في هدوء:

"ألم تسمعي بكرم الضيافة القبرصي، يا سيدة ستوارت؟ انت

اسديت الى أخي خدمة كبيرة، ولن يرضيني أن أتركك وحدك

في فندق".

وظل فاتحا باب السيارة قائلا:

"أخشى أننا سنضطر للعودة الى المكتب، ولكن بوسعي أن أتم

عملي خلال ساعة، ثم أصحبكم الى بيتي في لا بيتوس".

٢ - البيت مهر الفتاة!

ما أن حانت الساعة الثالثة حتى كانوا في طريقهم الى
المنزل، ولم يكف الطفلان عن الترترة، سعيدين بهذا التحول
غير المرتقب حتى أمرهما عمهما يحزم أن يركنا للهدوء، فكفا
عن الفور، ولكن هيلين لمحت - وهي تلتفت لتري رد الفعل -
فيونا تخرج لسانها وراء ظهر عمها، فحدجتها بنظرة حادة
لكن فيونا اكتفت بالابتسام.

قال ليون، وهم يجتازون المشارف الشمالية لنيقوسيا:

"أخشى أن القافلة فاتتنا، ولهذا ستستغرق الرحلة ما يتجاوز
الساعة".

كان الاتراك يسيطرون على الطريق القصيرة عبر الجبال،
ولم يكن مسجوحا بسلوكها بدون حراسة إلا للأجانب، وكان
على اليونانيين أن ينضموا لقافلة الأمم المتحدة، أو يسلكوا
الطريق الطولية. ومن الواضح أن هذا كان يسبب عناء
اليونانيين، لكن ليون كان يتكلم بلا حقد.

وعلمت هيلين فيما بعد ولدهشتها - أن ليون ببثرو لم يكن
سوى واحد من كثيرين من يوناني الجزيرة، الموالين للاتراك
في الواقع.

ساد صمت في السيارة فترة، فاضطجعت هيلين في مقعدها
تشر براحة مستغربة، وتأمل المنظر الطبيعي... كانت
المنطقة جذابة، تتلأأ فيها فيلات ومساكن ناصعة البياض.
وما أقل الحقائق التي تخلو من أشجار الفاكهة المثقلة
بالبرتقال والليمون على أنواعه. وكان النخيل المشرئب نحو
السما زاهي الاخضرار وبيض من الألوان ونباتات الخيازي
والجكرندة والورود تزدهر بوفرة.

كان رد الفعل الأول لهيلين عندما علمت برحيل ترودي
وناسوس الى الخارج، العودة الى انكلترا في أول طائرة لكن
ليون قال أن بوسعها البقاء في بيته ما شاءت.

فقررت على الفور أن تقبل العرض فتبقي في

الجزيرة أسبوعين، حسبما خططت فتزور الأماكن المشوقة...
وإذا سمح لها ليون باصطحاب الطفلين فإن اقامتها سوف
تكون أكثر متعة.

وما لبثوا أن خلفوا المدينة وراءهم، فبدأ فيض خضرة
السرو والكافور والنخيل ينحسر عن أرض جرداء. على
الجانبين مساحات شاسعة انتشرت فيها الصخور. أرض
سمراء، شققها الشمس الحامية الخنضبة من سماء صافية. لم
تكن هناك سحب إلا فوق الجبال. ومن آن لآخر، كانوا
يصادفون حمارا يزرع بحمله، وصاحبه يسير ببطء الى جواره.
ولم يبد أي أثر للسكان، لكن بعض المحلات السكنية ظهرت
أحيانا فوق السفح، تختلط فيها الأكواخ الطينية بالفيلات
الحديثة البيضاء، التي أقيمت حديثا. وكانت الأرض السمراء
محروثة غالبا، يذرت فيها المزروعات التي تبرز فجأة إذا ما
هطل المطر على الجزيرة.

قال ليون والطريق تلتوي:

"نبدأ الآن في المرور خلال الجبال، والطبيعة هنا رائعة."
كان باهرا أن تسفر كل انحناءة عن منظر جديد، المرتفعات
غير المنتظمة، بعضها مكسوة وبعضها عارية. وفجأة بدا
البحر أمامهم مباشرة، وبدأت السيارة تسير محاذية له. لم
يكن هناك ما يعترض الساحل، لا بيت ولا أي مبنى آخر قرب
البحر. وكانت قمم جبال كيرينيا الضخمة تبدو في شكل نصف
دائرة، وهنا وهناك كانت قرية صغيرة تقع في أحضان
الأشجار. وقال ليون:

"هذه هي كيرينيا، وبيتني على ثمانية أميال من هنا."

كان بيت ليون بيترو كما وصفه روبرت تماما، لكن هيلين
شوقت، حين وقفت بجوار السيارة - بعدما وصلوا أخيرا -
لتأمل ما يحيط بها. كانت الجبال خلف البيت، والبحر الأزرق
المترامي أمامه... وراح الطفلان يصيحان إعجابا، وقالت
فيونا وهي غير حصدقة:

"هل يمكن قطف هذا البرتقال؟"

فقال ليون:

"بالتأكيد."

ومد يده فاقتطع غصنا صغيرا وأعطاه لفيونا، لتدلى منه
ثلاث برتقالات بكامل أوراقها.

أدهش تصرفه هيلين كما بدا فجأة للطفلين أيضا.

وخطر لهيلين أنه قد لا يكون صارما كما قيل لها. وبينما كانت
تبدل ثيابها للعشاء - بعد ذلك بوقت - أخذت تفكر فيمن
قابلتهم، وفيمن يؤلفون أهل بيت ليون.

كانت هناك أخته كولا وقد تلقت تعليمها عاليا. وهي
مخطوبة وسوف تتزوج في نهاية يناير / كانون الثاني. في
الثانية والعشرين، وتعمل في أحد مكاتب نيقوسيا. أما
خطيبها ثيودور - الذي يناديه الجميع ثيدي - فيكبرها بأربع
سنوات، ويعمل أيضا في نيقوسيا. ولم تكن تقابله هيلين
بعد، لكن كولا أرثها صورته، فإذا به أسمر، وسيم وكان
واضحا أن كولا مثيعة به.

ولم تتمالك هيلين أن تقول، وهي تلمح وميضاً في عيني
كولا البنيتين الجميلتين:

"قيل لي أن معظم القبارصة يتزوجون زواج اتفاق، ولكن
الواقع أن زواجك عن حب."

اجتمع وجه كولا، ثم تماكنت نفسها وقالت:

"نعم. نمانون في العائنة من الزيجات القبرصية اتفاقات.
فالذين يتزوجون عن حب ليسوا كثيرين. ولو تزوج أخي
فسيكون لاتفاق ما، لأنه ليس من النوع الذي يقع في الحب."
وكانت في صوتها المنخفض، المبحوح، نبرة أسف. كان
من السهل الادراك انها لا تكن حيا عميقا لأخيها، وان لم تكن
مشاعره نحوها واضحة، فكان فاترا وكاد أن يكون جافا عندما
قدمها الى هيلين.

وتلاها من أفراد البيت أسمينا عمه ليون، وزوجها
فاسيليوس. كانت أسمينا بالغة الاهتمام بهيلين فأجطرتها
أسئلة عن حياتها، وموطنها في انكلترا - أما فاسيليوس
فاكتفى بأن يحدجها وهو يعبت بمسبحته. والواقع أن
الانطباع الوحيد الذي تركه في نفس هيلين تمثل في صوت
حيات مسبحته المتواصل. وفكرت لو أنها زوجته لفقدت
صوابها. وتساءلت إذا كان ليون مولعا بمسبحته أيضا ثم
تمنت - لسبب غير مفهوم - ألا يكون.

أما أم ليون - وكانت بدينة، مغضنة الوجه، تلوح أكبر من
سنوات عمرها الستين - فكانت هناك للزيارة، إذ كانت تقيم
في بافوس مع ابنة متزوجة، واعتادت المجيء مرتين في
العام لقرى ابنها وكولا وقالت هذه:

"اضطرت أن أترك أمي وأجيء إلى ليون، بسبب عطلي في نيقوسيا فلم أكن قادرة على السفر يوميا من باغوس إلى العاصمة".

وقد علمت هيلين - فيما بعد - أن أسعينا وفاسيليوس يقومان مع ليون حتى شهر يناير / كانون الثاني. إذ كانت لهما دار تبني وباعا بينهما القديم عندما عرض عليهما مبلغ جيد.

ودار في خلد هيلين أنه لن ينتهي شهر يناير / كانون الثاني حتى يكون ليون وحيدا مع الطفلين، إلا من الخدم.

رنين جرس في الطابق الأسفل أعادها إلى إكمال زينتها. ليون ذكر أنها ستسمع الجرس قبل تقديم الطعام بعشر دقائق، وخاتفتا لتساقتا ترياء، لن ذي ثو ترتدي؟ لا لأن الأمر أهمية فما كان لديها شيء جذاب، فهي منذ عقدت العزم على ألا تتزين لرجل ثانية، تعمدت أن تغاف ارتداء ما يبرز جمالها، لهذا اختارت ثوبا خلوا من الزينة، يصفى لونه الرمادي شحوبا على بشرتها، ويعتم زرقه عينيها. ورفعت شعرها الأسود الطويل في غير تأنيق - وربطته بشريط أسود. ولم تلون خديها بلحمة من المساحيق، ولم تصبغ شفتيها بما يبدي رقة قمها المقوس.

كم بدت مختلفة عن كولا، التي ارتدت ثوبا قطنيا موشى بالزهور وأحاطت أحد رجليها بسوار مرصع، والرسغ الآخر بساعة جميلة، وهما هدية خطيبها عند الخطبة، فبدت ضافية الفتنة. قالت هيلين في نفسها "هذا ما فعله الحب بك" وهي تتذكر فترة خطبتها الشاعرية.

كان مكانها إلى يمين ليون، بينما جلس الطفلان في الجانب المقابل، يفشاهما التهاب، لكنهما استطاعا الابتسام حين جلست هيلين، وجذب ليون لها المقعد بحفاوة قبرصية. وقدم إليها الحساء من وعاء كبير. لم تكن واثقة أنها ستستسيغه، فأخذت قدرا صغيرا، لكنه سحب المفرقة من يدها، وقال ليون وهو يقرأ أفكارها:

"سيروق لك".

وأضاف قدرا أكبر، وهي تسائل نفسها بخرج متزايد،

كيف تتناول كل هذا. ولكنها أفرغته، وأعجبها كما قال ليون. إلا أن الطفلين رقضا نصيبهما، إذ كان الحساء مصنوعا من لبن الماعز، وله مذاق حامض قليلا. وفهمت هيلين سر عروقهما عنه، لكن عمهما أصر على أن يسكب وجبة ثانية، ولم يسمح لنشيبتي بترك ملعقته إلا حين بدأ يلهث كأنه يوشك على التقيؤ. شقيق ليون أخبرهما أن ليون لا يفهم الأطفال، وما كان أصدق. فأول ما ينبغي معرفته عن الأطفال أنه لا يحب عصيهم على الطعام.

هذه المائدة حافلة بالطعام، واضطرت هيلين نفسها إلى الحرص حتى لا يتناوبا ما شعر به نشيبتي. لم يحدث أبدا أن رأت هذه الكميات من الطعام في وجبة واحدة، رغم أنها لاحظت أن ليون نفسه كان مقلّا في الأكل. وأخيرا، وضعت الفاكهة: برتقال، يوسفي، بلح، تين، موز. كلها من حديقة ليون. وعندها دعا ليون ابنة أخيه لتتناول ثمرة من التين، قالت:

"ليس هذا تينا، التين أسمر".

"فقال وهو يضع واحدة في طبقها:

"تيني أخضر. ماذا تأخذ يا تشيبتي؟"

"فقال:

"لا شيء".

"فد برتقالة".

"فبدأ تشيبتي مكفهر، وقال:

"أرجوك يا عمي ليون".

"لكن عمه قال:

"خذ واحدة".

"فلم تتمالك هيلين أن تدخلت قائلة:

"لا أحب الضبط عليه، فزنه ١٠٠ إنه ١٠٠".

"وقال ليون:

"حسن جدا".

ولكن كلمتيه انطلقتا بحدة، فأدركت هيلين بغريزتها أنه لم يرهن عن تدخلها. فرمقته باعتذار وتذكرت أنها ضيفة في بيته. وقالت:

"إنني آسفة يا سيد بيترو، لكنه في الواقع تناول كفايته. الأطفال لا يتعودون بسهولة أي تغيير في نظامهم الغذائي".

"قالت كولا في شيء من الدهشة:

• ألا يأكلون البرتقال؟ •

وأجابت هيلين:

• يأكلونه، ولكن الطعام الآخر، نحن لا نأكله بالزيت مثلاً •

وأضافت فيونا:

• ونحن لا نتناول نتفا من اللحم على أعواد، مذاقها كالدخان •

أجابته ليون وبدأ اللون الطبيعي يعود رويدا إلى وجهه:

• إنك لم تتذوق الدخان أبداً •

• لا يهم، لا أزال أجد مذاقها كالدخان •

قالت أسمىنا لفيونا:

• تحب أن يكون مذاق هذا اللحم كالدخان لأنه مشوي على الفحم •

ونظرت فيونا صوب عمها، قائلة:

• لا أحب هذا الطعام • هل أستطيع الحصول على بيض وشرائح بطاطس غداً؟ •

وكان جواب عمها مقتضياً:

• ستتناولين ما نتناول، وسرعان ما ستعودينه •

وأخذ سكيناً وبدأ يقشر تفاحة • واتقدت عينا فيونا، وخيل لهيلين - للحظة رهيبية - أنها ستخرج له لسانها مرة أخرى، ولكم أراحها أن الطفلة فطنت فجأة إلى أن الآخرين سيرونها •

عندما انتهى العشاء، غادروا الحجرة، وتناولوا القهوة على الشرفة في أقذاح صغيرة • كانت قهوة تركية، وكانت أول رشفة كافية لفيونا • وضعت قدحها بسرعة، وإذا بالسائل الأسود السميك يتناثر على غطاء الطاولة المطرزة • ورمق ليون

ابنة أخيه بنظرة غاضبة، وقال بحدة:

• حان الوقت لتأويا إلى الفراش •

والتفت إلى هيلين قائلاً:

• أسمحين بأن تعني بهما يا سيدة ستوارت؟ ستتولى آرائيه رعايتهما آخر الأمر، ولكن لعلك تقومين برعايتهما أثناء وجودك هنا؟ •

كانت آرائيه هي الخادمة التي قدمت اليهم القهوة، وبدت جافة، فغاص قلب هيلين لفكرة أن تتولى الطفليين • وأطلقت زهرة عميقة عندما تبينت أنها لا تحلك أن تفعل شيئاً، وبادرت

قائلة:

• نعم بالتأكيد • • • • •

وازدردت ما في قدحها •

كانت لحجرة فيونا شرفة تطل على البحر، أما حجرة تشيبي فكانت تواجه الجبل، وكانت الحجرتان مكسوتين بأبسطة سمبكية ومؤنثتين على النمط الحديث، وقد ألحق بكل منهما حمام •

واعجبت هذه الفكرة الطفليين ايما اعجاب، لكن وجهيهما كانا واجمين وهما يجلسان على سرير فيونا، ينظران إلى هيلين وهي تغلق المصاريع • وتساءل تشيبي وهو ينظر إلى

قدميه بينما كان يهز ساقيه:

• هل تعتقدين، بعد أن رأيته، أنه بغيض؟ •

وكان كل جوابها:

• ستتعودانه •

ثم أردفت:

• هيا يا تشيبي إلى حجرتك، فإن فيونا ستبدل ثيابها •

قال مبارحاً الفراش، ومقادراً الحجرة:

• آه، وهو كذلك •

سألته فيونا - بعد لحظات - وهي تنطلع إليها:

• إلى متى ستتمكنين؟ •

فأجابت وهي تحكم القطاء حول كتفي فيونا:

• سأبقى أسبوعين، إذا لم يمانع عمك في استضافتي •

ثم أردفت:

• هل ستحتاجين إلى بطانية؟ •

فأجابت:

• أريد بطانيات •

وأحضرت هيلين بطانية من خزانة الحمام، وفرشتها عليها

قائلة:

• كلا، واحدة تكفي، فالحر شديد هنا •

• يسعدني أن تبقي معنا فترة طويلة •

قالت هيلين:

• هذا غير ممكن •

وبدأ غريزي، انحلت وقبلت خدما قائلة:

• طابت ليلتك يا عزيزتي فيونا • • • • •

★ ★ ★

كانوا يجلسون تحت مظلة زاهية الألوان، في مرقأ كبيرين، وقد رست أمامهم عدة قوارب صغيرة. وعندما أفرغ الطفلان قديهما نهضا واقتربا منها لينأملها. فهتفت هيلين عندما رأتها يقتربان من الحافة:

"أخترسا. ارجع الى الوراق قليلا يا تشيبي!"
قالت كولا، عندما أطاع تشيبي فوراً:
"إنهما طفلان طيبان جداً."

كانت تتحدث بدهشة، والواقع أن هيلين لاحظت - في عدة مناسبات - عندما كان الطفلان يطعمان أمرا صغيرا بلا جدل، فتناولت هيلين كوبها وشربت، وهي تتأمل مراقبتها في فضول - وتلاحظ في الوقت ذاته ترددها - ثم قالت:
"كانك تتوقعين أن يكونا أرعيتين!"

فقالت كولا بعد تردد:

"أرهما ليون في انكلترا مرة أو اثنتين - ولم يبد أنه وجدتهما حسني السلوك بدرجة ملحوظة."

قالت هيلين، وهي تتذكر مناسبة أو اثنتين أثناء الرحلة اضطرت الى كبح جماح أحدهما:

"لهما لحظات ازعاج، ولكن المعروف أن الطفل الهادي يكون بليدا أيضا."

وتناولت كولا رشقة من شرابها وقالت:

"أراك تحبين الأطفال."

ولما لم تعقب هيلين، استأنفت قائلة:

"أنا أيضا أحب الأطفال، وأريد أربعة على الأقل."

ارتدت نظرة هيلين الى تشيبي، الذي كان يسرح البصر في المرفأ. كان هناك يخت يتحرك منسابا تحت ظلال الحصن. وانتابها شعور بالحزن. لو أن طفلها عاش، وبقي غريغوري بجانبها لأمكن أن تكون أنجبت طفلا آخر أو اثنين في هذه الأثناء.

وتأملت كولا. لم تكن تحسدها، ومع ذلك... قطبت جبينها وحولت بصرها. كلا. ما كانت تحسدها، وهي تقبل على الزواج من رجل لا تعرف شيئا عنه. حقا، كانت تظن أنها تعرف هذا التيدي ولكن المرأة لا تعرف الرجل الى أن تتزوج منه. عندئذ تكتشف كل عيوبه، كل أنانيته وقسوته، وتكون الفرصة فاتت لتفعل أي شيء. كلا. ما

كانت تحسد كولا، بل - على العكس - كانت تشفق عليها. ولكن لا كولا حاليا في أوج السعادة. قالت هيلين متلطفة:

"أين ستذهبان في شهر العسل؟ هل سترحلان للخارج؟"
فاومضت عينا كولا. وسرت هيلين لأنها استطاعت أن تحمل نفسها على ابداء الاهتمام.

"كنت أريد الذهاب الى باريس. ولكن تيدي زارها، فهو يريد الذهاب الى لندن."

"لندن. يا له من مكان لشهر العسل!"

وعادت هيلين تسألها:

"وإلى أين ستذهبان؟"

فأجابت كولا:

"لندن."

ثم أردفت بسرعة، وكأنها تقرأ أفكار هيلين:

"ولكني وضعت رسم البيت بنفسي. ففي مطبخي كل الأجهزة الحديثة. سأرتاح لوجودي هناك."

"إذن سمح لك تيدي بارتضاء نفسك في هذا الصدد."

فرفعت كولا ذقنها قائلة:

"طبعاً، انتي أرضي نفسي، إنه بيتي."

حدقت فيها هيلين قائلة:

"بيتك؟ أتعنين أنك تقودين بنائه؟"

لم تكن كولا تتجاوز الثانية والعشرين، وبناء بيت يتطلب نفقات كبيرة، أكبر من أن يتحملها ترويدي وزوجها. لذلك

أردفت:

"لا بد أنك غنية."

فقالت الفتاة:

"ترك لي أبي جيلغا للدوطة ودفع ليون الباقي."

"الدوطة؟ ألا تزالون تعملون بعادة دفع الدوطة؟"

قالت كولا، مختارة:

"طبعاً، إن الفتاة اليونانية لا بد أن تتكفل بالبيت. هذه

تقاليدنا. إنكن في انكلترا لا تلتزمين ببيت، لأنكن تتزوجن

دائماً عن حب. أليس كذلك؟"

وتجاهلت هيلين السؤال لتقول:

"ولكنك أخبرتني يا كولا أنك تتزوجين عن حب."

"هذا حقيقي، ومع ذلك يجب أن أتكفل بالبيت، لأن أبي ترك

لي النقود وأضاف إليها ليون لأن الاسعار ارتفعت

كثيراً، في الفترة الأخيرة، أبي وفر أبي المال اللازم خشية أن أتزوج رجلاً يصير على الدوطة.

"ماذا يحدث إذا... أنني أعرف أن الزيجات لا تنقسم هنا كثيراً، ولكن لنفترض أن هذا حدث هل يؤول البيت للزوج؟" عجبت كولا، وهتفت:

"كلا... إذا انهار زواجي، لا يؤول إليه البيت طبعاً يظل لي، وعلى تيدي أن يرحل عنه."

وأدركت هيلين أن هذا هو السبب في قلة انفصام الزيجات في الجزيرة، فالواضح أن الرجل كان في وضع شائك، ولو أساء التصرف، يجد نفسه بلا مأوى. كان لهذا التقليد العتيق - أن توفر الفتاة البيت كدوطة - حسنة، برغم كل شيء.

"قلت إن ثنائين في المائة من الزيجات هنا، زيجات مدبرة، زيجات اتفاق، لكنها تبدو نسبة عالية جداً."

ولم تكن كولا مصغية، إذ انفجرت تفتاتها عن ابتسامة، فالتفتت هيلين لترى ليون واقفاً خلف مقعدها. وعقب على كلامها بفتور قائلاً:

"هذا صحيح يا سيدة ستوارت. ولكن الزمن بطيء في التغيير تقاليد الشرق."

وجلس في أحد المقاعد الخالية، وهو ينظر إلى حيث وقف الصغيران، ثم أردف:

"ولكن معظم زيجات الاتفاق هذه، ناجحة للغاية." ورمقها بنظرة غريبة وفي نبراته شيء جعل هيلين تشعر بأن لكلامه معنى أعمق مما كان ظاهراً. ثم قال:

"هل أطلب لك شراياً؟ لم تهتمي بالسيدة ستوارت يا كولا." قالت هيلين:

"شربنا، أفرغت كوبى منذ قليل."

قال:

"تأخذين شراياً آخر؟"

وأشار إلى الخادم بدون انتظار جوابها، ثم سألها:

"ماذا تريدن؟"

وطلب الشراب الذي ذكرته. وجلسوا في صمت برهة، يناحلون المارة. كان معظمهم قبارصة، إذ لم يكن في المدينة أي زائرين تقريباً، في ذلك الوقت من العام. كان

بعض القبارصة يفدون في سياراتهم من نيقوسيا، وقالت كولا:

"إنها رحلة معتادة في أصيل يوم الأحد. كانت أسر بأكملها تأتي ومعها طعامها، وتبتاع المشروبات من المقهى المقابل للمرفأ."

تنهدت هيلين عندما تذكرت أن أقامتها أوشكت على نهايتها. بقيت أسبوعاً أطول مما كانت تعتزم، ولكن كولا وليون ألحا عليها في البقاء فترة أخرى حين أشارت إلى الرحيل. هي وكولا أصبحتا صديقتين حميمتين، واعتادتا - كلها سنع لكولا الوقت - أن تأتيا إلى المرفأ فتجلسان وتكلمان وتتعمان بالشمس، كذلك اصطحبت كولا هيلين في جولات وكان الطفلان يرافقانها أحياناً. لكن ليون أصر في عدة مناسبات أن ينطلقا وحدهما، قائلاً:

"لا يمكن أن تأخذاهما باستمرار." ورغم أن هذا كان بشير ضيق الطفلين، ما لبثت هيلين أن اكتشفت عبثية مجادلة ليون في أي أمر.

★ ★ ★

بدأ الظلام في الهبوط، وتحول الوهج الناري على البحر إلى أرجواني. جاءت هيلين وكولا والطفلان من لابينتوس في القطار. لكن ليون جاء بسيارته، فانطلقوا فيها عائدين. وشرعت هيلين وهي تجلس بجواره في المقدمة - تفكر فيما أتى به، إذ كانوا قد تركوه في حجرة المكتب منهمكا حين غادروا البيت. ثم فهمت أنه جاء خصيصاً ليقلهم، عندما أخبرته أمه عن مكانهم. يا للمراعاة! ومع ذلك كان رجلاً غريباً، واكتشفت هيلين هذا بعد وصولها بقليل.

كان مسلكه نحو الطفلين غريباً، مما أثار حنق هيلين. ومع ذلك، فعندما تعثر الصغير مرة وجرح ذراعيه ضدهما ليون بنفسه. ولن تنسى دهشتها - في تلك المناسبة - ولا الشعور الذي غشيها وهي تراقبه مع الطفل. لاحظت أصابعه لطيفة، وهي تعنى بالذراعين، وقد قام هو بنفسه بمسح دموع الشيبلي. أما مسلك ليون نحوها هي، فكان مجاملاً دائماً، ولكن في فتور وعدم مبالاة، مما

أثبت دون شك ما قالته بريندا عن انه لم يؤت وقتا للنساء .
أما دعوته لها لإطالة إقامتها فقد كان جزءا من التقاليد
القبرصية ومع ذلك كانت صادقة ... الواقع أنه كان بالغ
التهلف على أن تبقى في ضيافته مدة أطول وفي محاولتها
للمغور على مبرر لذلك تصورت هيلين أنه كان مقدرا
لمساعدتها في رعاية الطفلين، لأن أرائيه لم تكن قد تولت
بعد العناية بهما .

كان الطريق من كيرنيا الى لابييتوس يمتد مسافة موازيا
للبحر، ثم ينحرف الى التلال، متعرجا، يزداد ضيقا ووعورة
وهم يرقون نحو الفيلا البيضاء الجميلة المنتصبة في ضوء
بلون اللؤلؤ ولون الفسق المنسحب . وغشيت هيلين سكينه
ووخشة وهي تغادر السيارة وتقف محذقة عبر السهل الساحلي
الضيق الى البحر . وهرعت كولا بخفة الى داخل البيت قائلة:
" أرجو أن تأذنوا لي، فانا أشعر ببرد ."

كان الهواء حولهم معطرا وقالت فيونا وهي تتقدم بجوار
هيلين:

"إنني أحب عيبر الحديقة، ألا تحبينه يا سيدة ستوارت؟"

"بلي يا فيونا، أعتقد أنه رائع ."

فسألته فيونا:

"هل أنت حزينة لرحيلك؟"

واختلق صوتها وهي تضيف:

"ألا تستطيعين البقاء مدة أطول؟"

"مكنت أسبوعا آخر يا عزيزتي، ولي يبي كما تعرفين ."

قال تشيبي وهو يقبل عليهما:

"ولكنك وحيدة، وليس مستحبا أن تعيشي وحدك . لو أنني

مكانك ما أحببت هذا ."

قالت مبتسمة:

"طبعاً، ولكنني تعودت ذلك ."

فسألها:

"ولكن، ماذا تفعلين؟"

فأجابت:

"أشياء كثيرة، اقرأ وأرسم قليلا ."

وهنفت:

"ترسمين صوراً؟"

قالت:

"نعم، أحب أن أكون وحدي يا تشيبي فلا تحزن هكذا ."
وأقبل ليون من الجانب الآخر للسيارة، فسألها:
"أتخمين أن تعيشي وحيدة، يا سيدة ستوارت؟"
كان يقف مطلا عليها، منتظرا - كما بدا - ردها في فضول .

قالت:

"تعودت ذلك ."

ولكنه كرر سؤاله، فقالت:

"نعم، أحب أن أعيش وحيدة ."

وكان تعقيبها الداعي للدهشة:

"لا يبدو أنك متأكدة جدا من ذلك ."

وبعد صمت بدا أنه كهرب الجو المحيط بهم، قال:

"أود أن أتحدث اليك على حدة يا سيدة ستوارت، بعد العشاء

وأرسل الطفلين الى الفراش ."

فتساءلت، وهي لا تدري سر الشعور المرتعش الذي سري

في أعماقها:

"على حدة؟ هل أجيء الى مكتبك؟"

قال:

"إذا سمحت، قلن يزعجنا أحد هناك ."

كانت نبراته مقتضبة، وفي عينيه ذلك اللعنان المهدني

البارد المعهود وقد أطلق فمه بقوة . وانتظر لحظة ارتقابا لأي

سؤال آخر منها، فلما ظلت صامته استدار ودخل البيت .

ولمسته هيلين وهي شبه مسلوكة الوعي، لا تكاد تظن الى أن

الطفلين كانا متشبتين بيديها وهما يقفزان بجوارها .

ومع أن هيلين كانت مفعمة بالفضول، تشعر بدبيب غريب

بجعل ضربات قلبها تتسارع فلم تكن مستعدة أبدا لما قاله

أيون عندما دخلت حجرة مكتبه في وقت لاحق من ذلك المساء،

فيمدما قدم مقعدا ودعاها للجلوس، شرع يقول بدون تمهيد،

بشراب مائدة ولهجة الأمر الواقع:

"كنت جادا يا سيدة ستوارت، حيث قلت - في فترة سابقة

اليوم - أن زيجات الاتفاق والتراضي عندما، موفقة جدا في

العالم ."

وجلس في هدوء في مواجهتها واستأنف حديثه:

"استخلصت - أثناء حديث معك منذ فترة - أنك لا تأملين في

أواح ثان يقوم على الحب . أترينني أصبت في فهمي هذا؟"

قالت متلعثمة:

"ن... نعم"

وهي غير قادرة على تذكر الحديث الذي قصده. لو أنها قالت شيئاً كهذا، فلا بد أنه كان إشارة عابرة، لأن هذا ليس بالأمر الذي تقبل مناقشته مع أي شخص. اللهم إلا امرأة، وصديقة، هذا بالإضافة إلى أنها لم تأمل في زواج تان إطلاقاً.

"هكذا ظننت - ولما لم يكن ثمة احتمال لأن أشعر يوماً بم عاطفة عميقة لامرأة، فاني أعرض عليك مشروعاً، لا تقاطعيني يا سيدة ستوارت انتظري حتى أنتهي من كلامي." تزحزح في مقعده، ومع أن عينيه لم تكونا تحيدان عن وجهها بدا أنه لا يتأملها - إذ كانت تلامحه مكفهرة مريرة ومضى مستأنفاً كلامه:

"تلقيت نبأ - في الأسبوع الفائت - بأن أخني لن يبرأ من مرضه. الواقع أنه قد لا يعيش أكثر من شهر، على الأكثر." فبتفت هيلين:

"سيصبح الطفلان يتيمين .. ما أقطع هذا!"

قال يذكرها بخشونة:

"إن للطفلين أما .."

الواضح أنه كان يظنها على علم بتفصيلات تاريخ والذي للطفلين. ثم أردف:

"على أن هذا غير هام، لأنها غير ذات نفع لهما الآن، سيكون عليهما أن يقيما نهائياً معي، لا خيار في ذلك. ولقد راقبتك معهما في حذر بالغ، ومن الجلي أنهما مرتبطان بك قدر ارتباطك بهما، إزاء هذا أمل أن أستطيع اقناعك بالبقاء هنا والعناية بهما."

أطلقت زفرة طويلة:

"أهذا كل شيء؟ سأتدبر الأمر بلا شك."

وسكتت عندما نظر إليها، ثم قال بصوت ناعم:

رجوتك ألا تقطعي حديثي."

وتصاعد الدم إلى وجنتيهما، فانتظر لحظة، ثم استأنف:

"أختي كما تعلمين - سنتزوج في الشهر المقبل، وعمتي وعمي سيرحلان في الوقت نفسه تقريباً. وفي انكلترا، يباح لك دخول بيت رجل - ورعاية أولاده، ولو كان يعيش أعزب. أما هنا، فهذا مستهجن - لسوء الحظ - ونحن أكثر

اهتماماً بمسائل اللياقة مما في بلادك. وإذا يبدو أنه لا غنى عنك لسعادة الطفلين، فإنني أسألك الزواج مني."

افحمتها الدهشة، هل يجري عرض اقتراح الزواج بمثل هذه الرؤية الفاترة؟ وبعد ثلاثة أسابيع من التعارف قحسب! لم يزد ليون على ما قال، وأمهلهما لتستجمع شلالت ذهنهما. فأخذت لتقبل رويداً - وهي لا تزال مشدوهة - أن الزواج كان المخرج الوحيد له من موقفه، فما كان لامرأة في هذه البلاد أن تقيم معه دون أن تكون زوجة. وكان للخادمين - أراتيه وزوجها - بيتهما أسفل التل. حتى إذا كانا ينامان في دار ليون، تغير الموقف، فاقامة امرأة غير متزوجة في بيت رجل - مهما يكن المبرر - تعتبر في هذه البلاد مثيرة للشبهات والاستهجان.

تمالكت نفسها أخيراً، وقالت:

"أنا لا أستطيع الزواج منك، قد أبحث المجيء للعناية بتشيبي وفيونا، أما للزواج..."

والواقع أنها كانت تهتم بالطفلين كثيراً، ولا شك أنهما سيشرعان بشقاء كبير إذا فارقتهما. كان الموقف سيئاً من قبل... أما الآن فيجب أن يعلما بما أصاب أباهما... وغمصت وهي تحدجه بعينين أصبحتا الآن أكثر بريقاً:

لا أدري ماذا أقول يا سيد بيترو. إنني عاجزة حتى عن التفكير

وأيقنت هيلين أنه رجل حكيم وماكر، عندما قال في لهجة أكثر نعومة وانصافاً، أنه يفهم الصراع الذي يدور في داخلها، ولا يتوقع قراراً فورياً بل يجب عليها أن تفكر في الأمر كثيراً، وتحسب حساب الإيجابيات نسبة إلى الطفلين واليهما. أما من ناحيته في الزواج فلا ينبغي أن تخاف منه، فلن يطلب منها إلا أن تبقى عفيفة وألا تعرضه قط للهوان بسلوك ربما يوصف - ولو عن بعيد - بأنه غير لائق.

"إن يحدث ما تخشاه من هذه الناحية..."

وسكتت إذ أذهلها أن تفكيرها تحول إلى صوت مسجوع. وابتسم ليون لارتياكها، فإذا التغير الذي طرأ عليه مذهب. أجل، كان وسيماً... وكان غريغوري وسيماً أيضاً، ولذلك طاردته النساء. أما إذا طاردن ليون، فلن تخرج مشاعرها، بل إنها لن تحفل. ولكن، ما هذا التفكير؟ لم يكن ثمة مجال لأن تتزوج منه. كلا ما كانت لتتصور الزواج مرة أخرى من

أجل الأمن والطمأنينة . ولو من أجل الطفلين . ثم إن ليون كان
يحتقر النساء ، بينما كرهت هي الرجال وفقدت ثقتهما بهم .
فكرة زواج شخصين على هذه الشاكلة تثير السخرية .

٣ - آمال برسم الانهيار

انقضى شهران على زواجهما ، حين حلت معجزة الربيع على
الجزيرة ، وإذا بأمطار الشتاء ، وماء ثلوج الجبال تبدل معالم
الأرض الجرداء السمراء وفي مكان برزت نباتات خضراء
زاهية تكسو السهول ، وأخذت الألوان تعربد على سفوح
الجبال ، إذ راحت الزهور البرية تنفتح سريعا . ووقفت هيلين
في شرفة مخدعها تسرح النظر الحالم عبر الشريط الساحلي
الضيق إلى البحر الشاسع . البحر الأبيض المتوسط أزرق
لازوردي مثلالي . يتدرج ويخف لونه وهو يتراعى إلى الأفق ،
ولكنه ظل - مع ذلك - قائما لدرجة تفرقه عن زرقة السماء
الصافية .

ولامست شفتي هيلين ابتسامة . إذ سمعت نداء :

" يا عمتي هيلين ! "

فسارت إلى سياج الشرفة ، واطلت على الحديقة ، كانت
فيونا تقف هناك ، متطلعة بوجهها المتألق إلى أعلى ، تعلق
على كتفها حقيبة الكتب . وقالت :

" رجعت ! "

فضحكت هيلين قائلة :

" يمكنني أن أرى ذلك . . . هل أنت جائعة ؟ "

" حتى الموت . "

" تعنين إلى درجة التصور جوعا . "

" أجل ، أصبت ، هل لدينا شيء من تلك الكعكات التي صنعتها
بالأمس ؟ "

" عدد قليل . سأوافيك حالا بها ، سأرى ماذا لدينا في العلبة . "

تحولت إلى غرفة النوم ، فإذا بها تلمح نفسها في المرأة ،
وتذكرت ما قالته ترودي بدون حياء ، حين زارتها هيلين في
الأسبوع الماضي : " أنت طراز قديم ! "

" لماذا التحفظ وقد تزوجت ؟ إنك لن تستيقظ ، وإنني لأذكرك ،
فهؤلاء القبارصة سرعان ما يجمعون شاردين ، يكفي أن

يروا وجهها جميلا واحدا كي يتحرفوا، ما لم يكن لديهم في البيت ما هو أفضل.

"هل تتحدثين عن سابق اختبار؟"

"كلا طبعاً، فحبيبي تاسوس مختلف، أجل، لا داعي لأن تضحكي ولكن هذا هو السائد، انني أخذك، كما أقول، لأنك صديقتي. إنك حسناء يا هيلين، فلماذا الجمود؟ ثم، ما تبريرك لطول ثيابك؟ يا للسفاهات، انني لا أكاد أرى ركبتيك!"

ونبهها صوت فيونا نقول:

"أين أنت يا عمتي هيلين؟"

فبادرت مجيبة:

"ها أنا قادمة يا حبيبتي!"

كانت فيونا في المطبخ، تطوف بأرجائه، وهي تجر حقيبتها على الأرض. وبادرت:

"أين الكعك؟"

"أرفعي حقيبتك، كلا، أرجو أن تعلقها في مكانها."

وخرجت فيونا - وهي تبتسم بخبث - لتعلق حقيبتها في خزانة البهو. ثم عادت وجلست إلى مائدة المطبخ، وهي تؤرجح ساقيها، وترقب متطلعة أن تقدم إليها هيلين ما تأكله. ووقفت هيلين تطل عليها لحظة، وهي تذكر رد فعل الطفلة عندما حدثها ليون عن أبيها بعد وفاته. ظل وجهها الصغير الوديع جامداً في البداية، ثم انخرطت في بكاء مثير للاشفاق على صدر هيلين. أما تشيبي فزم شفثيه، محاولاً ببسالة أن يكون شجاعاً، ولكنه ما لبث أن انهار هو الآخر. كان هذا المشهد المغت للقلب، والوجوم المكفور الغلق في عيني ليون فوق ما تحتمل هيلين. فكان قرارها من وهي الساعة - كما قالت لنفسها - تاجراً عن انفعال عاطفي قوي مؤقت. وشعرت أنها قد تندم على الزواج، فالحياة مع هذا الأجنبي الأسمر الصارم الذي كان أسلوب حياته مختلفاً عن أسلوبها وعاداتها - لا يمكن أن تكون مصانة. أكد لها روبرت جازماً أنه ما من قبرصي يستطيع أن يعيش بدون امرأة. وجمع أن هذا الجانب من حياته الشخصية ما كان ليحسها قط في شيء، كانت تدرك دائماً احتمال وجود هؤلاء النسوة، وما كان هذا ليساعد على الرضا وراحة البال. وبرغم التحذيرات الكثيرة - في دخيلاتها - فإن

هيلين سمحت لشفتيها بأن تسيطر على هواجسها، ولم تندم بعد على ذلك - وكان هذا النمط من الزواج يلائمها. إذ هناك مجال لمشاعر أعمق، بدون إيقاف العواطف، ومن ثم لا خطر لأن تنهار آمالها مرة أخرى.

وهتفت الصغيرة:

"يا عمتي هيلين، اسرعي."

تقدمت هيلين إلى الخزانة ضاحكة، وأخرجت الكعك، ثم سكبت لها فنجاناً من الحليب، وسألتها، وفم فيونا مليء بالكعك:

"أين تشيبي، لماذا يتأخر دائماً؟"

"إنه مع بعض الأولاد، يستطيع أن يتكلم معهم، أما أنا فلا أستطيع. من الصعب تعلم اللغة اليونانية، لكن معلمتي طيبة، تخبرني بكل الكلمات."

"وأنت تسميها على الفور."

"أتذكر بعضاً منها، لكن الحروف غريبة جداً. لماذا يقبلونها رأساً على عقب؟"

"ليست محلوقة لكنها تختلف عن حروفنا، هذا كل ما في الأمر. سوف تتعلمين اللغة قريباً."

"لكنك قلت لعبي ليون أنك لن تتعلميها أبداً."

"أنا أكبر منك، والتعلم في الكبر شاق دائماً، أتوقع أن أتعلم ما يكفي لاحتياجاتي، لا يهم، فمعظم الناس هنا يتكلمون الانكليزية."

نظرت هيلين نحو النافذة، إذ ظهر تشيبي عند الشرفة، ثم أقبل خلال الباب الزجاجي، وإن هي الا لحظة حتى انسابت حقيبتك تتدحرج عبر الأرض المصقولة.

"ماذا تأكل فيونا؟ هل أستطيع أن أأكل بعضاً منه؟"

"عندما ترفق حقيبتك وتخرجها من هنا."

"علقها ثيابة عني يا فيونا."

اتسعت عينا هيلين، وهتفت:

"ماذا قلت؟"

فأجاب تشيبي وهو يجلس على أحد المقاعد العالية، منتظراً أن يقدم له كعك وحليب:

"قلت لفيونا أن تعلق حقيبتك."

فقال هيلين بحزم:

"خذ حقيبتك خارج المطبخ فوراً."

فأشار بسايبته الى الحقيقة وقال:
"فيونا؟"

شربت فيونا جرعة كبيرة من الحليب - وملأت فمها بالكعك
ثانية، قالت:

"لن أعلق حقيبتك الزرية أعلقها بنفسك! لست أدري ماذا
دهاك يا تشيبي، إنك تحاول دائما التعالي واصدار الأوامر"
وتطلعت الى هيلين في استنكار، وابتلعت ما في فمها،
وأردفت تقول بفظاظة:

"طلب مني أن أنظف حذاءه، هذا الصباح."

حدقت فيه هيلين غير مصدقة، وهتفت:

"تنظفين حذاءه! هل طلبت من أختك أن تنظف حذاءك؟"

فأجاب بهدوء:

"هذا صحيح، الأخوات دائما يخدمن أخوتهم هنا، الصبيان هم
ذوو القيمة، وليس على البنات سوى الشغل و... كل شيء..."

"هل لي أن أسأل، من أخبرك بكل هذا؟"

قال باستخفاف:

"الأولاد. كل أخواتهم يخدمونهم وأنا شعرت بالتفاهة حين
قلت أن أختي لم تكن تخدمني، لأنهم ضحكوا وقالوا (إنني
مختلة)..."

"لا أصدق أنهم استعملوا هذه الكلمة..."

"كانت كلمة أخرى باليونانية، ولكنها تعني الشيء ذاته..."

"مهما تكن الكلمة، فعليك أن تنظف حذاءك بنفسك، والآن،
اذهب وانقل حقيبتك..."

قال محتجا:

"ولكنك لا تفهمين يا عمتي هيلين..."

"ما الذي لا تفهمه عنك هيلين؟"

* * *

كان ليون يقف بالباب، منذ مدة، رشيقا يرتدي بذلة من
القبيل الأصفر الشاحب لا تشوبها شائبة. ومع أنه كان يخاطب
تشيبي، فإن عينيه كانت على هيلين، تطوفان بها من قمة
رأسها الى قدميها، ولأول مرة شعرت بمظهرها الكئيب.

٤٠

كانت ترتدي كنزة وبنورة، كلاهما باللون البني الداكن
وشدت شعرها الجميل الى الخلف بإحكام، وثبتته الى مؤخرة
رأسها بمشبك قبيح من لحاء السلحفاة. كانت جواربها سمكية
وحذاءها ثقيل. وتحول انتباهه الى تشيبي، وتساءل بصوت
حازم:

"وبعد؟"

كان صوته حازما. وسألت هيلين نفسها: ترى هل كان
يصغي الى الحديث قبل دخوله الحجرة؟ وعاد ليون يقول
للغلام:

"هل فقدت لسانك فجأة؟"

تبحر اعتداد تشيبي وتعالته فقال مستكينا:

"لا شيء يا عمي ليون..."

فالتفت ليون الى هيلين، واضطرت أن تجيب عن الطفل،
قالت في لهجة مخففة ونبرة مستضحكة:

"تشيبي يتحول الى قبرصي حقيقي بسرعة. فهو يعتبر أن
الأنثى أدنى منزلة..."

تساءل ليون:

"أصبح هذا؟"

فقالت فيونا:

"إنه يسخرني، ويأمرني بتنظيف حذائه..."

فقالت هيلين مؤنبة:

"هذا افتراء... طلب منك فقط أن تنظفي حذاءه..."

أدركت هيلين أن ليون سمع ما دار، فلم يبد دهشة ما، وقال
لابن أخيه بهدوء:

"أنزل عن هذا المقعد وانقل حقيبتك!"

ولمسها بطرف حذائه، وأطاع تشيبي على الفور، ولكنه رمق
أخته بنظرة محنقة، وهي ترميه بنظرة منتصرة، وقال حين
عاد، وهو لا يوجه خطابه لأحد معين:

"كل الأولاد في المدرسة يكلفون أخواتهم بأداء أشياء لهم..."

ثم أردف في شبه تحد لعمه:

"كانت عمتي كولا تؤدي لك أعمالا... كنت تكلفها دائما بأن
تؤدي لك أعمالا، وتأتيك بأشياء..."

أعقب هذا الانفجار الصغير صمت رهيب، ثم أمر ليون ابن
أخيه بالذهاب الى حجرته، وبادرت هيلين، وهي تقدم الحليب
لتشيبي:

لا... إنه لم يقصد أن يكون قظا..

تشبيهي... أفعل ما أقول..

كان الصوت منخفضا متوعدا، حتى أن هيلين نفسها ارتجفت قليلا لسماعه. وانحسر الزهو عن محيا فيونا، ودبت خلسة قطعتين من الكعك في جيبها، وانزلت من المقعد فأتجهت إلى الباب، تابعة أخيها.

ولاحظت هيلين تصرفها، وعندما نظرت إلى ليون، أدركت أنه هو الآخر عرف ما اعترفته فيونا، بيد أنه تركها - لدهشة هيلين - تغادر الغرفة. وقال وهو يخطو نحو باب الشرفة:

"ما الذي أوحى إليك بأن المرأة أدنى مكانة في قبرص؟"

قالت:

"إنها حقيقة، ليس كذلك؟"

قال وهو يتأملها - مرة أخرى - بفضول، وقد تسلطت نظراته على وجهها:

"الامر يتوقف على تأويلك سلوك الرجل نحو المرأة.."

وبدا لهيلين أنه يتفحص كل زاوية، وكل خط في قسماتها، فسارت نحو المائدة ورفعت الطبق والكوب عنهما وحملتهما إلى المطبخ. بينما استأنف ليون حديثه قائلاً:

"المرأة في بلادكم مساوية للرجل، ولكن يبدو أنها في اكتساب هذه المساواة، فقدت شيئاً أثمن منها بكثير.."

التفتت هيلين ونظرت إليه متسائلة:

"ما الذي فقد؟"

فقال:

"إنها كثيراً ما لا تلقى احتراماً ولا مجاملة. بل الأكثر من هذا، إنها لم تعد تعتبر امرأة. وأعني بذلك لم تعد تحظى باهتمام الرجل. لم تعد تلقى دلالاً.."

فاضت عينها الزرقاوان بالعجب. ما كانت هذه بكلمات رجل يكره النساء. وقالت:

"لم أعلم أبداً أن الرجال الشرقيين يدللون زوجاتهم.."

"إذن، لم يصدقك من أخيرك. اننا ندلل نساءنا ونعتر بهن. وأنا أتكلم الآن بصفة عامة طبعاً، ولكن لكل تعميم شواذ دائماً. بعض الرجال هنا لا يعاملون نساءهم برقة، ولكن هؤلاء أقلية...ؤكد لك.."

"لست أدري كيف تقول هذا. فمهما رأيت استخلص أن

النساء هنا مجرد قاذبات، مستعبدات تقريبا.."

تملكه غضب حقيقي، إذ انبعث صوته بحدة وقال:

"هراء! إنما تشتغل النساء في البيت لأن هذا طبيعي لهن، بينما يأتي الرجال بالمال.."

قالت وهي تضع الكوب تحت ماء الصنبور:

"النساء يشتغلن في الحقول، كثيراً ما شاهدتهن.."

وقف في المدخل، وأحدى يديه على فخذه، وقد بدا أنه يهتم بالمنظر، ثم قال:

"هذا صحيح، ولكن الرجال يعملون إلى جوارهن.."

كان وضع الشمس وصفاء زرقاء البحر والنساء يجعلان للضوء طابعاً يهفو بالمشاعر، لا سيما وهو يتراعى على شعر ليون الأشيب، فيكسبه بريق القصة. وأشاحت هيلين تأخذ منشفة لتجفف الكوب. بينما استرسل ليون:

"النساء يستمنعن بالعمل في الحقول... ويستمرئن الهواء الطلق.."

والنفت يتأملها وهي تقف عبر أصابع قدميها لتضع الكوب على رف مرتفع فانحسر ثوبها. وعندما استدارت رآته يحدق... وغير الموضوع، متسائلاً فجأة:

"ألمت بحاجة إلى نقود يا هيلين؟"

سرى الدم سريعاً إلى وجنتيها، ولكن عينيها عكستا دهشة واهنة، وقالت:

"كلا، لدي الكثير.."

كان سخياً، ولا بد أنه يعرف بعدم حاجتها. فhez كلفيه، وقد قرأ ما عكسته ملامحها، وقال:

"إنما رأيت أن أسأل فحسب. ما عليك إلا أن تطلبي، ولن تجديني ضيقاً.."

اتسعت حدقتها. أترام يوماً إلى أن عليها شراء بعض الملابس، فما كانت تعترض ذلك؛ مرت مناسبات عديدة - في الفترة الأخيرة - وكانت عيناه السوداوان تحدجانها بنظرة تسلبها الهدوء من نفسها، وتذكرها - لسبب من الأسباب - بما قاله روبرت من أنه ليس بوسع أي قبرصي أن يعيش بدون امرأة. كان ليون يخرج كل مساء.

وكانت لهيلين آراؤها فيما كان يفعل. بيد أنه كان - في أوقات أخرى - يهكت في البيت أسبوعاً بأكمله. إنها

٤٣

لم تجذبه حتى الآن، ولكنها كانت تتساءل: كيف كان يفكر عقله هو. وانتهت الى انه لا فرق لدى هؤلاء الشرقيين الشهوانيين بين امرأة وأخرى... وقد يأتي يوم... وأقصت هيلين الفكرة من ذهنها. كانت الحياة مرضية، وهناك الطفلان وبيت جميل، فلم يكن من الحكمة تعقيد حياتها بالتعرض لايقاظ الرغبات في زوجها. كلا، كانت خلوا من الجاذبية له. وعقدت العزم على أن تظل كذلك.

سألته في نبرة استعطاف واهنة:

"لن تبقى تشيبي في غرفته طويلا؟ إنه جديد على كل هذا، وهو يصغي للصبية الآخرين. إنه في السن التي تجعله يريد الشعور بقيمته."

وسارت نحوه وابتعد ليون، بدون أن يحاول دعوتها الى الشرقة، فابتسمت وتقدمت نحوه وعندما وقف الى جوارها، أدركت أن رأسها لا يكاد يبلغ كتفه.

قال:

"إنك بالغة اللين معهما."

ورغم حدة لهجته شعرت أنه لم يكن ينتقد طريقتهما مع الطفلين وقالت:

"لا يزالان صغيرين... وتعرضا لصدمة قاسية."

"لكنهما تكيفا مع ظروفهما في شكل جيد، وبسرعة."

وتفوست شفتاه المزمومتان في ابتسامة، وغاب عن عينيه الوميض البارد، وأردف قائلاً:

"إنك طيبة معهما يا هيلين. كلا، لن أترك الصبي طويلا، ولكنه يجب أن يتعلم أنه لا يستطيع أن يعامل أخته كأنها أدنى منه، يجب أن يدرك أننا نتوقع منه أن يرباعها."

ورمقته بسرعة، ما أغرب هذا الرجل! هل يمكن أن يكون عدوا للمرأة حقا؟ من المؤكد أن تجربة أخيه أثرت عليه، لولا ذلك ما قال وهو يعرض عليها الزواج أنه لن يهتم بأية امرأة اهتماما عميقا.

تذكرت هيلين مسلكه نحوها منذ زواجهما. كان مجاملا، ودودا ولو أنه مرات كان فاترا على نحو ملحوظ ولكن لم يحدث أن تحدث إليها بخشونة مرة أو وجه اليهسا أمرا، أو أبدى

نحوها ترفعا وتعاليا. وفي الواقع، لم يكن هناك ما يدعو لذلك. سألتها أن تتزوجها وقبلت. كان من حقها أن تتوقع أن يعاملها على قدم المساواة. مع ذلك فإن تلك الشراسة كانت موجودة دائما، لأنها تؤلف جزءا دائما من مظهره. فتحس بوجودها تماما في بعض الأوقات، ولا تكاد تحس بها أحيانا أخرى. وتطلعت اليه ثانية، لاحظت فكاه الصارم التكويني واختلاجه عضلة خفيفة في جانب منه. الابتسامة خبت، والغم أطلق مزموما في ذلك الخط الذي كان يوحى بالخشونة. الخشونة التي كانت تشوب وسامة ملاصقة. ترى كيف يبدو حين يكون غاضبا؟ كيف يبدو عندما يمتحن صبره أو يواجه تحديا؟ وتركزت هيلين عينيها تتحولان الى قبه ثانية؟ فشعرت بقشعريرة غريبة تسري في بذنها، ووجدت نفسها تتمنى في حرارة ألا تتعرض لمناسبة تواجه فيها. إذا اقتنعت لنحوها أنه يستطيع أن يكون قاسيا حقا. وانتبه الى اهتمامها، فاستدار وأطل عليها من فوق، بنظرة مسائلة فبادرت تقول يارتباك عجبت منه.

"متى يستطيع تشيبي مغادرة غرفته؟"

"قبل موعد الشاي - ساري."

"قبل موعد الشاي؟ إن الساعة الثانية والنصف الآن."

كان اليوم المدرسي هنا يبدأ في الثامنة صباحا، وينتهي في الثانية بعد الظهر، وأردفت:

"ما أحسب أنك ستبقى هناك ساعتين أخريين؟"

فقال:

"كلا، ليس لساعتين، ولكنه سيبقى هناك فترة. لن يصاب بأذى."

كانت لمراته هادئة، ولكن هيلين أدركت أنها لن يقبل مزيدا من الجدل في هذا الامر، فلادت بالصمت، وهي تظل على فيونا في الحديقة. كانت تلعب كليا ضالا، استقر لديهم أخيرا. ففي قبرص كثيرة هي الكلاب الضالة، تعيش في المدينة والريف على السواء، وكانت هيلين تشعر بالحيرة... فكيف تحصل على قوتها... عندما استقر هذا الكلب الذهبي اللون في حديقته، توقع هيلين أن يطرده ليون أو يأمر باعدامه. ولكنه - على النقيض - أمر له بالطعام وكان للنوم.

تحرك ليون، وانحنى قليلا على السياج. يشاهد أيضا

ابنة أخيه مع الكلب . وطاف بخاطر هيلين مرة أخرى : أجل ، إنه رجل غريب في عدة نواح ، إنه لغز بسمات متناقضة في شخصيته ، فهو أحياناً صلب لا يلين - لاسيما مع الطفلين - ومع ذلك قد يشمل بعطفه هذا الحيوان الشريد . كذلك كان مسلكه نحو النساء عجيباً ، فمع اهتمامه بهن - لسبب واحد فقط - لم يكن يسمع بمجرد إشارة ازدراء أن تشوب صوته إذا تحدث عنهن . كان لطيفاً مع أمه وسخياً مع أخته . ولكن نبراته - في المناسبة الوحيدة التي ذكر فيها أم الطفلين - كانت خشنة جداً - حتى خيل لهيلين أنه قادر على القتل . وعادت تنظر إليه جانبياً ، وتتمنى مرة أخرى ألا تحدث مناسبة تضطر فيها إلى الغضابه .

غير أن احتكاكاً بين إرادتهما حدث في ذلك المساء بالذات فشعرت هيلين - للمرة الأولى - بوطأة شخصيته المتسلطة . كانت قد دبرت أن تزور تروودي مرة في الأسبوع ، ومعنى هذا أن تكون خارج البيت حين يعود الطفلان من المدرسة ، وشعرت بأن واجبها أن تذكر ذلك لليون ، فقالت :
" سيكونان بخير مع آرائيه لحوالي ساعة فقط ، فسوف أعود قبل الثالثة ."

وكان ليون يقضي المساء في البيت ، وقد جلسا في الشرفة يحتمان الشاي ، ويتجادبان أطراف الحديث . فقال :
" طبعاً ، في أي وقت تذهبين ؟"

فقالت :

" أغادر البيت حوالي الساعة التاسعة ."

كانت صادفت روبرت في القرية ، في اليوم السابق ، فذكر أنه ذاهب إلى نيقوسيا كذلك ، وعرض عليها . بطبيعة الظروف - أن يقلها فقبلت .

لمست جبين ليون لمسة خفيفة من عبوس ، وقال :
" التاسعة ؟ إذا بكرت قليلاً أستطيع أن أصطحبك ."

فابتسمت قائلة :

" لا عليك يا ليون ، ذلك الشاب الذي صادفته على السفينة ، روبرت ، أخبرتك عنه ، إنه ذاهب إلى المدينة ، وسيفلني ."

ازداد عبوس ليون وقال :

" أفضل ألا تقبلي . سأنضم إلى القافلة ، إذ يجب أن أكون في المكتب مبكراً جداً ، في الغد . ولكن لا أدري ما يدعوك

أعدم الذهاب معي ."

" ولكن القافلة ترحل في الساعة والنصف ، وسأكون هناك مبكرة عما ينبغي ."

" نستطيع أن تمكثي في المكتب ساعة أو نحو هذا ."

كانت في صوته نبرة متصلة واضحة . وكانت هيلين لا تزال موهمة الصدر من تعقيبه الهادئ . بأنه كان يفضل ألا تقبل أن يقلها روبرت . إنها تأبى أن يملأ عليها ما يجب وما لا يجب أن تفعله . فقالت :

" سأقبل دعوة روبرت ، إذا لم تمنع ، فهذا أيسر بكثير ."

" بل أمانع يا هيلين ."

كان صوته لا يزال هادئاً ، ولكن لهجته أصبحت أكثر حدة ، قليلاً واستأنف قائلاً :

" آرائيه ستكون هنا ، وبوسعها أن تعنى بذهاب الطفلين إلى المدرسة ."

فقالت :

" ولكني لا أريد الخروج مبكرة ."

فكان رده :

" إذن أخشى أن تضطري لأن تستلقي الحافلة ، أو أطلب لك سيارة أجرة إذا كنت تفضلينها ."

قالت بصوت هادئ ، رغم أن لونها بات شاحباً :

" سأذهب مع روبرت ، وهذا - كما قلت - أيسر . من السخف أن أفكر في سيارة أجرة بينما أستطيع قبول الدعوة ."

وضع ليون قدح القهوة على الحضدة ، واستلقى في مقعده ، وهدق فيها ، ثم قال بصوت ناعم :

" هيلين ، إما أن تذهبي إلى المدينة في إحدى الطرق التي ذكرتها ، أو لا تذهبين إطلاقاً ."

ومرت لحظة وهي تتحقق بنظرات جامدة ، لكن انفعالها كان في تصاعد ، وما لبثت أن قالت في حدة زادت على ما كانت تعتزم :

" سوف أقبل دعوة روبرت . . . ويؤسفني أن أخالف رغباتك يا ليون ، لكنني لا أقبل الجبر . تذكر أنني انكليزية ."

فقال :

" أنت زوجتي ، وستفعلين ما أقول ."

أخبرت روبرت ، وسوف يأتي ليصطحبني ."

بدا مندهشاً وهتف :

٤٧

"هل هو قادم الى هنا؟ هل أخبرته حقا بأن يأتي الى منزلي ليصطحبك؟"

ولم تكن هيلين ترى أي عيب في قدوم روبرت الى البيت ليصطحبها، لكنها عندما رأت وجه ليون، شعرت أن هذا ما كان ينبغي أن يحصل. كان من العجيب أن روبرت لم ينصحها، ويبدو أنه يعرف الكثير عن نمط الحياة هنا. لهذا أردت:

"بوسعي أن اتصل به هاتفيا - إذا كان هذا ما تفضله - فأخبره أن ينتظرنني في القرية."

"ستصلين به فعلا، لالقاء التدبير. أوضحت لك - في البداية - أنني أتوقع منك أن تتصرفي بانتران، ولا تعرضيني لأي شكل من الهوان. وأنت الآن تسعين لتصرف يعرضني للسخرية."

"هذا غباء! لماذا يعرضك قبولي دعوة روبرت للسخرية؟" هذه قرية صغيرة... وفي أي حال، فكل امرئ في قبرص يشغل نفسه بشؤون جاره. ولست راغبا أن يقرن اسم زوجتي باسم ذلك الانكليزي."

لم يكن من الممكن اغفال التصلب في صوته، ورغم خفوت ضوء المصباح المثبت في الحائط، اكتسب وجهه بتعبير فظ وعدواني. كانت هيلين تكره فكرة الخضوع لقراره لكنها اقتنعت - في الوقت ذاته - بأن أي مزيد من الجدل لن يكون عقيبا فحسب، بل سيؤدي الى إذلالها، كان ليون يفرض ارادته دائما... وليس في موقف كهذا فحسب ونظرت اليه مدركة مرة أخرى ذلك الشعور الغريب من المضض الذي خبرته في مناسبات سابقة عديدة. وقادها هذا الشعور الى الحذر، فلم تعد تلج في معارضة رغبته. وقالت:

"إذا كان هذا شعورك إزاء الأمر، فساقبل ما تقول، وألغي التدبير."

انحسر الدم عن وجهها وكانت تدرك أنها شاحبة تحت الضوء الخافت. وتجاهلت نظرات ليون بدون اهتمام، ثم سألتها:

"هل ستأتين معي؟"

قاومت برأسها. وإذا ذاك أردت:

"سكون علينا أن لنهض مبكرين. إنني أسف لهذا، ولكن لا حيلة في الأمر. لدى يوم حافل في القد، والانطلاق

باكرا سيهينني على انجاز عملي."

كان هواء الصباح خفيفا صحواء، والشمس تطل بأشعة زاهية في سماء خالية من السحب. وكانت السيارة مرسيديس كبيرة سوداء.

استرخت هيلين في مقعدها، وقد أدهشها أنها ستستمتع بالرحلة حقا. وما أن غادر كبرينيا حتى انضموا الى القافلة. كانت هناك مركبات عديدة من سيارات النقل، والحافلات، والسيارات الخاصة، وبعد تسجيل رقم سيارتهما، انطلقا في حراسة سيارات جيب بقودها جنود الأمم المتحدة بزيهم الأزرق. وكانت هناك لافتة ضخمة تنبئ المسافرين بأن الاتراك يريدون "حريتهم، وأمنهم وحقوقهم". السلام يسود كل شيء، وفيما عدا اللافتات التي تظهر من آن لآخر، والتحذيرات التي تحرم النقاط المصورة، لم يكن ما يشير الى أن الطريق تحت أي رقابة. ونظرت هيلين الى وجه زوجها، فإذا به هادئ مطمئن لا ينم عن أي كراهية لاضطراره ملازمة الطابور الطويل، ومنوعا من أن يسبق ما أمامه.

وتمتمت مأخوذة بالجمال الذي حولها: "من المؤسف أن تكون هناك مشكلات". كانت قبرص حقا "جزيرة فينوس" الأثرية بالسحر. ولا مكان للفرقة فيها. وعقب ليون بهدوء: "إنها ستحل نفسها، فكلنا قبارصة، وليس هناك ما يمنعنا من العيش في سلام."

وتذكرت هيلين أن مشاعره تنحدر الى الاتراك، فعجبت لغرابة شخصية هذا الرجل - مرة أخرى... هذا الذي تزوجته ولا يزال شبه غريب عنها. وما لبثت السيارة أن مضت خلال سلسلة الجبال الشمالية التي كونتها هزات أرضية شديدة، هدمت وشوهت أحواض الطبقات الجيرية الأصلية، وكومتها في كتل رمادية ضخمة، تعلوها حصون سائت هيلاريون، وبوفانيغون، والقنار - (كانتارا). وكانت سفوح الجبال مكسوة بأشجار السرو والزيتون، بينما القرية منها تزدان بحشد من الألوان، ألهبها بهاء وتفتيح ربيع قبرص.

وفي سهل ديسوريا العظيم، كانت الأرض الجرداء

العارية التي مرت بها هيلين في طريقها الى كيرينيا - في شهر نوفمبر / تشرين الثاني - قد تحولت الى طوفان من الخضرة والقمح والشعير، بينما كانت مجموعة كبيرة من الاقحوان ترفع رؤوسها الحمراء الزاهية فوق القمح - من أن الآخر - لتكسر تواتر لونه.

عند لافتة على جانب الطريق نقول: "مرحبا بكم الى القطاع الحر"، تفرقت القافلة - واتخذت كل مركبة وجهتها - وزاد ليون من سرعته، متجاوزا حبرا عابرة مثقلة بالأحمال، ونسوة فلاحات شدت إلى أكتافهن سلايا كبيرة، وبعض دراجات بخارية متباعدة. وخلفت السيارة وراءها الباعز على جانب الجبل، والرعاة يعتنون بقطعان الأغنام البنية ذات الوبر الطويل.

سألها ليون عندما بلغا مكتبه:

"ماذا ستفعلين؟"

وأوقف السيارة، والتفت نحوها، خضيفا:

"هل الوقت مبكر لنذهبي الى صديقك؟"

فقالت:

"نعم أرى أن أمكث هنا فترة... إذا لم يضايقك وجودي."

وابتسم لدهشتها، وقال يذكرها:

"أنا اقترحت عليك أن تحكثي."

ودار حول السيارة الى ناخيتها وزادها دهشة بأن فتح

الباب لها قائلا:

"سنتناول القهوة."

فقالت:

"لا داعي للقهوة، فأنا اعرف أنك تود الشروع في العمل."

ولكنه ألح. وكان الرجل الذي أقل هيلين والطفلين من ليمابول موجودا - واسمه ثيوفيلوس - فابتسم حين قدمه ليون لهيلين، وطلب منها أن تتأديه ثيو. وخرج الرجل بأجر من ليون ثم عاد بعد قليل بالقهوة على صينية. قدحان صغيران، مع كل منهما كوب ماء منجل لا بد منه. وجلست هيلين الى جانب الطاولة وليون في الجانب الآخر. أخذ يتأملها بنظرات غريبة، وهي تحتسي قهونها. وكانت ترتدي ثوبا قطنيا داكنا وخاليا من أي زينة، مما أبرز شحوب وجنتيها. قال ليون بما بدا لهيلين أنه لمسة حذر:

"هل ستسوقين وأنت هنا؟"

وساءلت نفسها ثانية، أثراها كانت ايماءة الى أن تشتري لنفسها بعض الملابس، قالت:

"لا أحتاج إلى شيء."

ثم أسرعت تضيف:

"الطفلان بحاجة الى جوارب، وربما اشترينها لهما اذا تجولت مع ترودي في المدينة."

لم يعقب على ذلك. وبعد لحظات أزاح صينية الشراب عن مكتبه، وتناول ملغا من أحد الأدراج. لكنه نظر الى هيلين - قبل أن يبدأ في فحص محتوياته - ومد يده فتناول صحيفة، وهم بأن يناولها إياها، واذا به ينتبه الى أنها باليونانية، فوضعتها جانبا على الفور، ثم ناولها صحيفتها المفضلة بالانكليزية سايبيرس ميل.

بعد ساعة ونصف أقلها ثيو بالسيارة الى مسكن ترودي، على أن يعود اليها في الرابعة والنصف، كما أخبرها ليون وهي تغادر المكتب حيث اعترضت قائلة:

"والطفلان؟ أستطيع العودة قبل ذلك في القطار."

فقال:

"لن يصيبهما سوء. أرجو لك يوما لطيفا، ومتعي نفسك."

كان الشارع حيث تسكن ترودي محفوقا بالقبيلات البيضاء والبيوت ذات الطابق الواحد، والمباني السكنية، وأشجار السرو والنخيل تنمو في كثير من الحدائق، تعلو وتطل فوق أشجار البرتقال واليوسفي ذات الأوراق اللامعة.

كل الحدائق متألقة بالزهور، في كل مكان، والنباتات المتسلقة تتعانق من الشرفات، تلتف حول أعمدة الحديد المطروق، وتنساب الى الارض.

قالت ترودي معذرة، إذ خفت الى الباب تستقبل هيلين:

"اضطرت لأغلاق مصاريع النوافذ الخشبية، فالشمس تنال من ألوان كل شيء."

قالت هيلين:

"لم أعود بعد أن أغلق المصاريع لأصد الشمس. فهذا يبدو غلطا لي."

"أعرف هذا. كنت مثلك في البداية، فالشمس قليلة في انكلترا، حتى لا نفكر في إغلاق المصاريع بوجهها."

وتقدمتها الى الحجرة المطلة على الواجبة، وكانت آنثذ في
الناحية الظليلة، ومصاريع النوافذ مفتوحة. وقالت:
"سنجلس هنا... إنها ليست في أناقة حجرة الجلوس، ولكنها
أطيب هواء في هذا الوقت من النهار."
قالت هيلين وهي تجلس بجوار النافذة:
"إنني أراها أنيقة، وأحب مسكنك هذا."
فقالت ترودي:

"مع أنني لا أتوقع أن يكون شيئا يذكر بالقياس لبينك."
ودفع شيء في صوتها بحجرة خفيفة الى وجه هيلين. كانت
تلك زيارتها الرابعة لعسكن ترودي، ولم تدعها بعد الى
لابيتوس.
قالت ترودي:

"ماذا تودين أن تشربي؟"

فأجابت هيلين:

"سأتناول شراب البرتقال إذا سمحت."

وذا في خلدها وهي تراقب ترودي إذ أقبلت بالشراب بعد
لحظات أنها رشيقة وجبيلة. وقالت لنفسها وهي تطلق لذهنها
العنان ليعود الى تلك الأيام حين كانت هي وترودي دون
العشرين: "أنا أيضا كنت كذلك"، كان الفتيان يجذبون
اليهما، فكان يوسعهما أن يختارا. بالنسبة الى هيلين، كان
لقاؤها بغريغوري حبا من أول نظرة، وأقربا يدخران بلهفة،
وتزوجا بعد عامين. وبدا لهيلين - وهي تستعيد الماضي - أن
حماس زوجها سرعان ما فتر، ولكنهما انساقا الى علاقة
مريحة، فكانت هيلين سعيدة، إن لم نقل مننشية. وكثيرا ما
قيل لها أن هذه الفترة لن تدوم، ورغم أنها شعرت بالنعاسة
بعد ضياعها، فقد راضت نفسها، عندما أنجبت طفلها،
اتسعت خبرتها واستمتعت بذلك الانجاز الرائع الذي لا تشعر
به المرأة إلا مع الأمومة. وعندما فقدت هيلين الطفل، تطلعت
الى زوجها ليواسيها أملا في أن يقترب منها ثانية - كما كان
في البداية - لكن علاقتهما ظلت على حالها، مريحة لكنها غير
مثيرة.

أما ترودي فكانت أكثر توفيقا، إذ ظلت وناسوس متحابين
بقدر ما كانا في بداية الزواج. ولم يكن ناسوس يذهب الى
أي مكان بدونها بدافع الوفاء. وما كان يشاهد قط في صحبة
زملائه الذين يجلسون في

مقهى - يلعبون الورق أو الترد. كان كل ما يريده أن يعود الى
بيته وزوجته، ويحكت معها.

★ ★ ★

قالت ترودي وهي تستقر في مواجهتها بجوار النافذة:
"حدثني عن ليون."

واضطربت عيناهما البتتان قليلا وهي تضيف في شيء من
التردد:

"لم تقولي لي عن زواجكما إلا القليل جدا. بل لم تقولي شيئا
في الواقع."

وكان هذا حقيقيا، وأرسلت هيلين نظراتها ساهمة الى
الطريق ومرت بضغ لحظات قبل أن تتكلم. ثم قالت مرتبكة:

"لا بد لي أن أخبرك في وقت ما، فلا بأس أن يكون الآن.
تزوجنا أنا وليون من أجل الطفلين."

اختلفت عينا ترودي وهي تتأملها، وقالت:

"الطفلان، تشيبي وفيونا؟"

"أخبرتك أن أباهما مات، واضطر ليون أن يكفلهما. وسألني
أن أبقى في قبرص وأرعاهما. من الواضح أنه ما كان لي أن
أعيش في بيته بدون... بدون زواج... ولذلك..."

وهزت كتفها، وسرحت نظراتها الى الشارع ثانية.
والنظرات ترودي، فاضطرت هيلين الى مواصلة حديثها:

"هذا هو السبب أنني لم أقل لك الكثير عنه. إنه ليس...
ذلك النوع من الزواج."

فهتفت ترودي:

"هذا النوع؟"

قالت هيلين:

"أعني... ليس طيبعا."

واتسعت حدقتا ترودي دهشة، وقالت:

"ماذا تقولين؟"

استطاعت هيلين أخيرا - وهي ما تزال تجد عناء - أن توضح
لها قلما واصلت صديقتها الحملة فيها غير مصدقة، شابت
صوتها رنة تحد وهي تقول:

"كنت تعرفين دائما أنني لن أتزوج ثانية عن حب... كثيرا
ما أخبرتك بهذا."

فقال تروودي مصححة:

"كنت تقولين دائما أنك لن تتزوجي إطلاقا، لذلك أرى أنني معذورة إذا استنتجت - بعدما تزوجت - أن زواجك عن حب... ويجب القول أنني تصورت في الأمر كله شيئا مستغربا، لأنك كنت معلقة تماما..."

وتناولت كوبها بين أصابعها، وهي تحقق في هيلين مفكرة، ثم أردفت:

"ولذلك لا تعنين بمظهرك؛ أنا صريحة، بل وقحة إذا شئت، لكنك كنت دائما جذابة جدا، ألا تريدين أن يهواك ليون؟"

قالت هيلين:

"كلا في الواقع لا أزال على رأيي حين مات غريغوري، لن أزع قلبي بتورط ثانية... هذا الزواج يناسبني على ما هو عليه، وإنني جادة إذ أقول لا أريد أن أسترعي انتباه ليون أبدا ضحكت تروودي فجأة بشيء من الحرج وقالت:

"كلا، هذا غير ممكن؛ إنك تقرأين عن مثل هذه الزيجات، ولكنها لا يمكن أن تحدث في الحياة الواقعية..."

وقالت هيلين:

"هذا الزواج حدث، أنا وليون أكثر قليلا من غريبين... فصاحت تروودي:

"ألم... أبدا؟ كلا، لا أصدق، ليس مع قبرصي... إنه... لا يستطيع أن يعيش هكذا... ما من أحد منهم يستطيع..."

فهزت هيلين كتفها قائلة:

"أعرف كل شيء عن حياتهم... لهم علاقات غرامية... تساءلت تروودي:

"ألا تهتمين؟"

هزت هيلين كتفها ثانية وقالت:

"لماذا أهتم؟ الزواج - كما قلت - عملية تجارية بحتة، لم يحدث إلا لتفادي الأقاويل فحسب، كلا، لا أبالي بما يفعله ليون... ليس لي شأن بحياته الخاصة..."

وظلت أسارير تروودي توهي بأنها غير مصدقة، وقالت:

"ولكن... أعتقدين حقا يا هيلين، أنك تستطيعين الاستمرار هكذا طيلة عمرك؟"

فاجابتها:

"ولم لا؟"

قالت تروودي باقتناع ثابت:

"مستحيل... ليس مع قبرصي... أنه لا يستطيع..."

"ماذا تعنين بأنه لا يستطيع؟"

"إنه لا يستطيع أن يعيش معك في البيت ولا يكون... لا يكون طبيعيا..."

"قلت لك أن له علاقات غرامية..."

فسألتها:

"ما أدراك بهذا؟"

قالت:

"إنه يخرج كل ليلة..."

فقال صديقتها:

"معظم الرجال هنا يخرجون كل ليلة، يقضون وقتهم في المشارب والمنتديات والمطاعم، ليس هناك ما يجزم بأنه مع النساء..."

قالت هيلين:

"منقد أنه يخضبها مع نساء..."

هزت تروودي رأسها في حيرة لعدم الاكتراث البادي في راحة هيلين وسألتها:

"أليس جاليز حقا؟"

وبدت من هيلين زفرة دلت عن نقاذ صبر، وقالت:

"ألم تترك أنني لا أحد سببا للحالة... فلا أشعر نحوه بأي حيلة... إنك تعلمين شعوري نحو الرجال يا تروودي... لن أسمح لنفسى بالتورط عاطفيا..."

"سأقول لك هذا... سواء كانت لديك نية التورط عاطفيا أو لم تكن، فلن تسلمري بقية حياتك تعيشين في هذا الوضع غير الطبيعي..."

قالت هيلين:

"ألا أرى ما يدعو لغير ذلك..."

ولكن صديقتها هزت رأسها قائلة:

"إن يلبث ليون أن... أن..."

"أو عدني، وهو - بجانب هذا - لا يجذني جذابة..."

فأملت تروودي لحظة، ملاحظة ثيابها، وشحوب خديها، وصيف شعرها المتقشف، ثم سألتها:

"كيف تعلمين أنه لا يراك جذابة؟"

قالت:

"أرجوك يا ترودي ! أرى أن تغير الموضوع ."
وهذا ما فعلناه ، وانقضت بقية النهار على نحو هادي .
وبعد تناول الغذاء في الشرفة ، ذهبنا إلى المدينة .
قالت ترودي وهي توقف سيارتها في شارع جانبي :
"كثير من المتاجر تغلق أبوابها من الساعة الواحدة والنصف
إلى الثالثة ولكن بعضها تستمر مفتوحة ، وسوف تشتري ما
تريد ."

اشترت هيلين جوارب الطفلين فقط ، بينما اهتمت ترودي
بشراء الأغذية . وعندما فرغنا من التسوق ، ذهبنا إلى مقهى
طلبنا للمطربات . وارتفعت عشرات العيون عن ورق اللعب
والنرد لتتأمل الاثنين باهتمام . فقالت هيلين :
"أكره هذه المقاهي ، لماذا يحملون هكذا ، حتى ليظن أي
شخص أنهم لم يروا نساء في حياتهم ؟"
فتلفت ترودي حولها قائلة :

"هل لأن نساءهم لا يرتدن هذه الأماكن ، توقعت أن يكونوا
الغوا محيئنا نحن ، الاجنبيات ، فما أكثرنا هنا . تعالي
نخرج !"

جلسنا في الشرفة تنسليان باحتساء الأوزو وتناول حزة من
الزيتون والخيار ومكعبات صغيرة من الكبد والجبن . وتذكرت
هالين عشاءها الأول في تعود الأطعمة المحلية . وسألته
ترودي في سياق الحديث :

"هل ذهبت إلى ماري موتتي ؟"
التصمت عينا هيلين وقالت :

"كلا ، ولكن روبرت دعاني للذهاب إلى هناك معه ."
فلسألت ترودي في فضول :

"روبرت ؟ أه... الشاب الاسكليزي الذي قابلته على السفينة ؟
هل يذهب إلى هناك ؟ إنهم يعدون مأكلا مذهشة... من أحسن
ما تناولت . هل ستذهبين مع روبرت ؟"

"ربما... في إحدى الأمسيات ، فالوحدة تقسو أحيانا ، بعد أن
اسلم الطفلين للغراش ."
فسألته ترودي :

"هل تستطيعين أن تتركيهما ؟"
أجابت هيلين :

"ستمكنك آرائيه معهما ."

"القولين أن ليون يكون خارج البيت دائما ؟"

"إنه لا يكاد ينظر إلي ."
وقطبت وهي تقول هذا ، متذكرة تلك المناسبات التي كان
يتأملها فيها . ثم عادت تقول :
"لقد وعدا ."

وسألت نفسها ، أتراها كانت تحاول اقناع نفسها ؟
اضطرت ترودي إلى الضحك قائلة :

"وعده ؟ أتصدقين حقا أنه سيحافظ على وعده ؟"
قالت هيلين :

"أظن إنه موضع ثقة ."

وطاف بوجه صديقتها ظل من الرثاء . ثم قالت :

"ما أقل ما تعرفين . ولو كنت مكانك ما انكلت كثيرا على وعد
كهذا ، هؤلاء الرجال الشرقيون على حالهم... أو كما يجعلهم
المناء... أنا متزوجة من أحدهم ، وأعرف... يؤسفني أن
أبدد أوهامك ، لكنك ترتكبين أكبر أخطاء عمرك إذا ظننت
أنك ستبقين زوجك بعيدا إلى ما لا نهاية ، ما هكذا خلق
الرجال . كما أن هذا ليس طبيعيا له أو لك . كلا يا هيلين ،
صدقيني - عندما يقرر ليون أن ينتهك هذا الوعد فسينتهدكه
بدون أي وخز من ضمير ."

"ولكن مشاعري... يجب أن يراعيها ."

"كلا يا هيلين ، وحق السماء ! إنك لست ساذجة . وعندما
يؤاتيه المزاج... ل... ل..."

وسكتت وهي تهز كتفيها في ضيق ، ولكنها استرسلت بعد
لحظة :

"عندما يحين الوقت ، لن يتذكر أنه أعطى وعدا ، فيجب أن
تعدي نفسك ."

ودهشت هيلين إذ وجدت نفسها ترتعد ، وقالت في يأس :

"ليون له ملاحية ، ولن يرغبني أبدا ."

قالت ترودي ضاحكة :

"ليس لديك دليل حقيقي على أن له ملاحية... كما تسميتها .
في أية حال ، من الأنسب أن يجد ما يريده في تناول يديه ،
وقد لا يشعر دائما برغبة في الخروج ."

"ليس دائما، ولكنه يخرج في معظم الامسيات".

قالت ترودي:

"سيكون عليك أن تتأنقي قليلا، إذا خرجت مع هذا الروبرت".
أومات عيناها بلا اهتمام، فهزت هيلين كتفها وقالت غير
مكترة:

"ليس لدي ما أتأنق به، لذلك ربما لا أذهب معه".

كان قد بقي - حين عادتا الى المسكن - نصف ساعة قبل
مجيء ثيو ليقل هيلين، فأخذتها ترودي الى مخدعها لتربها
بعض ثياب جديدة ابتاعتها في زيارتها الأخيرة لحصر. وقالت
وهي تخرج بعض الفساتين والتايورات:

"حازلت أظن أن الملابس الانكليزية أفضل ما رأيت، ولكن ما
رأيت في هذه؟"

وتأملت هيلين الثياب في تقدير، مشيدة بحسن ذوق
ترودي.

قالت ترودي معترفة:

"لكنني أخطأت في هذا".

وقدمت ثوبا من التيل الأزرق. كان قصيرا جدا، فتحة العنق
واسعة. واسترسلت قائلة:

"إنه لا يناسبني إطلاقا. رأيته في نافذة المتجر. وأدركت أنه
مقاسي فاشتريته بدون أن أجربه. تأسوس يكرهه".

فقالت هيلين محتجة وهي تتناوله:

"لكنه جميل. أنا متأكدة أنه يناسبك".

ونشرتة على جسم ترودي، ثم اضطرت لأن تعترف بأن
صديقتها على حق وقالت:

"إنه اللون... درجة الزرق لا تناسبك".

قالت ترودي:

"إنه أقرب الى اللون الملائم لك. جربه؟"

وفعلت هيلين، وسارت بحركة تلقائية الى المرأة. لا شك
في ذلك، فقد تغير مظهرها بأكمله. وقالت وهي تضع الثوب

على السرير:

"نعم، إنه لوني".

فقالت ترودي:

"بوسعك أن تأخذه، فهو لا يصلح لي".

"هذا كرم منك يا ترودي، ولكني لا أحلم بأخذه وهو جديد
تماما".

تناولته ترودي وعادت تقيسه على هيلين قائلة:

"ما كنت لأقدمه لك لو لم يكن كذلك، إنه يناسبك - يجب أن
تأخذه".

فهزت هيلين رأسها ولكن بضعف. كان الثوب بسيطا، ولكنه
حسن الصنع، وأضفى عليها جمالا بالتأكيد. وشرعت تقول:

"لا توجد مناسبة لأرتديه".

وأسرعت ترودي معترضة:

"تستطيعين ارتدائه في أي وقت... ما رأيك في ارتدائه
حين تخرجين مع صديقك روبرت إلى هاريه موت؟"

قالت:

"المواقع... إنني لم أقرر نهائيا الذهاب".

كانت تقف على درجات السلم، متأبطة صندوق الثوب، حين
جاء ثيو بالسيارة... وقالت ترودي:

"سأراك الاسبوع القادم، أرجو أن تأتي".

فقالت هيلين:

"نعم، سأتي، وأشكر لك الثوب، ليترك تدعيني أدفع ثمنه".

"أرجوك، لا تعودي لهذا الجدل ثانية".

فضحكت هيلين... وما هي الا لحظة، حتى كانت تلوح
بيدها لصديقتها من السيارة. وصاحت ترودي:

"مع السلامة".

ثم أردفت بلهجة غامضة غريبة:

"وأتمنى لك أحسن الحظ".

٤ - المرأة الأخرى

الهواء مفعم بعبير زهر البرتقال . وامتدت أشعة الغروب الذهبية الى مرتفعات جبال كيرينيا الوعرة فتوهجت بجمرات النار المحتضرة، والسحب البنفسجية تملأ عباب السماء فوق البحر الشاسع . سرعان ما سقطت الشمس وأقبل الظلام وبدأ ضياء القمر يلمس الموجات الصغيرة، فيحيطها، بتألق فضي .

وقف ليون مستندا الى مدخل الشرفة يسرح البصر في البحر، وألقى برأسه الاسمر الى الوراء . لحقت به هيلين، بعدما أسلمت الطفلين للفراش، فتزحزح جانبا . وبرغم الظلال التي تكسو وجهه، أحست هيلين أنه يبتسم حين مرت خارجة الى الشرفة . وجلسا برهة، ثم مد ليون يده فانار المكان وسألها :

"ماذا تشربين؟"

فأ قالت :

"لا شيء، شكرا ."

لكنه دخل البيت، وعاد يابريق بلوري وكوبين . ولم تجادل هيلين حين ناولها كوبا، ولكنها سألته وهو يجلس :

"ألن تخرج؟"

قال وهو يحدق في عينيها فتتسارع خفقات قلبها :

"لن أخرج الليلة . . . لماذا؟"

لم يخرج في المساء لمدة اسبوع تقريبا . وأدركت سر اضطراب قلبها، ولماذا كان بداخلها خوف ما . فمنذ أكدت لها ترودي أن ليون سوف ينكت بوعده، أخذت تراقبه وهي تحاول أن تسبر غور كل نظرة، وتأمل في نهاية كل نهار أن يخرج .

تملمت ملاطفة بدون أن تقصد :

"إنها أحسية جميلة . من الحرام تمضيته في البيت ."

فقال :

"نحن لسنا في البيت ."

"ولكنك كنت في المكتب طيلة النهار ."
 "أجل، وكان الجو حارا رطبا، إذ اختل جهاز التكييف . . ."
 "أفرغني من شرايك وسنخرج لنتمشى ."
 كانت الكوب تلمس شفتيها، وإذا جسمها يرتعد فجأة - لم يكن هذا ما أرادت . . . فعادت تقول :

"أكيد أنك تفضل أن تكون خارج البيت مع . . . مع أصدقائك ."

فقال :

"لو صح هذا ما كنت هنا ."

فزادت كلماته من اضطرابها، وتعللت افراغ كوبها، وشعرت برأسها يدور . وبحركة تلقائية، رفعت يدها إليه قائلة :

"إن بي صداعا ."

فقال :

"أنا أسف ."

كانت لهجة هادئة في مجاملتها، ولكن نبرة قلق داخلتها . ونهض من مقعده قائلا :

"الهواء المنعش سيشفيك . سأخبرك ماذا نفعل، سننطلق في السيارة حتى الشاطئ، ثم نتمشى هناك، وسرعان ما سيزيل النسيم صداعك ."

قالت :

"الطفلان . . . لا أستطيع تركهما ."

فقال :

"سأطلب إلى أرائيه أن تمكث حتى نعود ."

قالت في الحاج قانط :

"يحسن أن ألجا للفراش ."

كلا، لم تكن تريد أن تذهب للفراش، فاستدركت :

"لعلك على صواب، وإن هواء البحر سيفيدني ."

فسألها وهو يتفرس في وجهها الشاحب :

"هل أنت بخير؟ هل تشعرين بشيء غير الصداع؟"

اصطنعت هيلين ابتسامة ونهضت، فاقتربت منه ثم ابتعدت بسرعة قائلة :

"كلا، لا سوء بي يا ليون . أما رأسي . . . فأظنني شربت

بسرعة ."

قال :

"فعلا، ولست متعودة، كان عليك أن تحترسي".
وما أن استقرا في السيارة، حتى شعرت هيلين بمزيد من
الطمأنينة لحظة على الأقل!
أوقف ليون السيارة على جانب الطريق، وتركها غير موضدة
الأيواب، فقالت وهما يسيران إلى الشاطئ:
"أتراها ستكون في أمان؟"
فأجاب في هدوء:
"الناس هنا لا يسرقون... ولا أعرف أن أحدا يمر من هنا، في
أية حال".

وكان على حق، لم يكن على الشاطئ سواهما...
القصر بزغ من وراء السحب، فأرسل خيوطه الفضية عبر
البحر. لم يكن هناك صوت، ولا وسوسة الأمواج وهي تتراعى
إلى الشاطئ. لم تر هيلين بحرا بهدوء البحر الأبيض
المتوسط، ونسيت مخاوفها وهما يتحسبان وليون يتكلم من أن
لآخر بصوت خافت، وكثيرا ما يخلد للصمت. فوجدت هيلين
نفسها تهمس:
"يا للسكينة!"

كانت انكلترا بعيدة جدا، فبدت مأساة حياتها غير واقعية.
لو استطاعت أن تبقى زوجها على مسافة منها، لظلت حياتها
سهلة يسيرة ناعمة. من المؤكد أنه ما كان يجدها جذابة...
ولكن عينيه عادتا تحدجانها في اللحظة نفسها، فتطلعت على
مضض تقابل نظراته، وسألها:
"هل تحسن رأسك الآن؟"
قالت:

"نعم يا ليون، شكرا".
كانت كلماتها متكلفة، وبدأت تشعر بحرج في حضوره،
وأسفت لانسياقها لذلك الحديث مع ترودي، فكانت مخاوفها -
حتى ذلك الحين - مجرد همسات يسهل عليها استبعادها، أما
الآن، فقد أصبحت تلح عليها، ونساء لك: كم سينقضي قبل أن
تعود ثقتها في وعد ليون؟ على أنها - في هذه اللحظة -
عرفت الطمأنينة وتحرر ذهنها من الخوف. كان السير على
الشاطئ الساكن متعة، حتى مع ليون... طالما يلزم الصمت.
ما كانت شواغلها تعاودها إلا حين يتكلم، فلم تكن تدري ما
سيقوله بصوته الخافت ونبرة القلق التي تشوبه.
قال:

"هناك مقعد على مسافة، نستطيع أن نجلس إذا شئت".
وما لبثا أن بلغاه، وفوجئت بإحدى التصرفات البسيطة التي
تدهشها عندما أخرج منديله ونفض القبار عن المكان حيث
ستجلس. وما من شك أن الحفاوة والمجاملة فن لدى
القبارصة. ووجدت هيلين في هذا ما يشرح الصدر، فلم تلتفت
إلى مثل هذه الرعاية من غريغوري أبدا. لذلك ابتسمت لتصرف
ليون وشكرته في أكبار. والنسب من وراء الشريط الساحلي
الضيق شدي زهور البرتقال، فأخذت هيلين تنهل الهواء.
قال ليون:

"ليتك تشمين العبير حيث البساتين الكبيرة".
ثم جلس على المقعد المجاور لها. وفجأة قال، بما بدا
لهيلين أنه دافع وقتي:
"سأذهب إلى فاماغوستا الأسبوع القادم، وأمكث يومين
تقريبا فستجري تعديلات رئيسية أريد أن أشرف عليها. هل
تحبين المجيء معي؟"
هتفت:
"أنا؟"

كان روبرت وكثيرون غيره حدثوها عن وقت اليناع في
فاماغوستا حتى القبارصة كانوا يغمضون أعينهم وهم
يصفونه، وتجنبت هيلين أن تذهب يوما... لكن فكرة الذهاب
مع ليون لم تخطر لها مطلقا لذلك أردفت:
"لست أدري".

وتوقعت أنهما سينزلان في فندق، فاسترسلت:
"لا يمكن ترك الطفلين... أرايتيه تحب أن تنام في بيتها.
هكذا أخبرتني مرارا".
فقال مبتسما:

"هذا من أجل زوجها. يستطيع أن يمكث في بيتنا أثناء
غيابنا. سيرضي هذا أرايتيه. كلا، لا ينبغي أن تعلق على
الطفلين... لن يتأثرا بغيابنا يومين كما أنني أشعر أنك
بحاجة للترويح، كنت قلقا عليك في الفترة الأخيرة".

اتجهت عيناها إليه... إذن فقد لاحظت، ولكنه لم يدرك
الحقيقة. كان مهتما بها، فرأى أن الترويح يفيدها.

لكنها تذكرت الجانب الآخر من طبيعته. تذكرت اقتناعها السابق أنه يستطيع أن يكون قاسيا. انبعت صوته خفيفا ولكنه ملح:

"مما تخافين يا هيلين؟"
وعجبت، أيكون أحسن بارتباكها وهو ينتظر اجابته؟ وارتجفت، ثم اغتصبت ضحكة مرتعشة، وقالت:

"خائفة؟ ما الذي أخافني؟"

فرد برقق:

"هذا ما أسألك عنه. ولا تحييين."

هزت رأسها، وسرحت بصرها في البحر تفكر في جواب مقنع... قلو أنه أدرك الحقيقة... قالت كاذبة، متحاشية عينيه:

"لست خائفة من شيء."

فقال بهدوء:

"إذن، لا يوجد ما يبرر عدم صحتي إلى فاماغوستا. سأعطيك بعض النقود لتشتري لنفسك ثيابا."
فهتفت قبل أن تفكر:

"آه، كلا."

ثم أردفت بخير من الهدوء:

"لدي الكثير يا ليون."

فتساءل:

"ما لديك؟ إذن فلا بد أنها متروكة في خزانك."
أذهلها زده، ثم تذكرت أنه زوجها رغم كل شيء... من الغريب أنها لم تفكر في نفسها أبدا كزوجة ولذلك لم تكن مستعدة لأن يكلدها على هذا النحو الطبيعي في الظروف العادية. وقالت:

"الثياب الداكنة أكثر ملائمة لمن لديها أطفال تعنى بهم."

وهي تحاول أن تجد ردا مقنعا.

ارتفع حاجباه قليلا وهو يقول:

"هذه فكرة عفا عليها الزمن!"

أجابته:

"إنني أفضل الثياب الداكنة."

تواري القمر وراء السحب العابرة، لكنها أحست بوجهه يتخذ المظهر الخشن، كما تغير صوته وهو يقول:

"أنا أفضل الثياب الزاهية. ساري ما عندك، فإذا لم يرق"

لي تشتريين بعض ثياب جميلة يا هيلين، ألوانها تتجشى مع عينيك وتلقي ظلا على خديك المشاحبين."

وأخذ قلبها يخفق بشدة. لكن نبذة مبسوطة سرت إلى صوته، وارتجفت وهي تقول لنفسها: لا يمكن أن أكون جذابة له. لكن هذا اليقين خالطه العلم بأن النساء سواء لدى أولئك الشرقيين المشيويين الرغبة. فقالت محتجة:

"طبعاً، يحق لي ارتداء ما أحب!"

قال:

"هل ترتدين ما يسر زوجك؟"

وسكت عندما أحس بضيقها، وسرت في صوته رنة تطف وهو يضيف:

"سأخذك إلى فندق الملك جورج - وهو خير ما في فاماغوستا - وأود أن أفخر بك - سنلتقي ببعض زملاء عمل لي."

إذن كان هذا هو السبب! واسترخى جسدها، وندت زفرة ارتياح ولامت نفسها على مخاوفها. فما كان في نبرات صوته الرقيقة ما ينم عن رغبة - ما أغياها! - وكل هذا لأنها أخذت كلمات ترودي بجدية بالغة وبدأ ذهنها يميل لفكرة قضاء أيام لائلا في فاماغوستا، على سبيل التغيير - كما قال ليون، بالرغم من تعلقها بالطفلين كانا مسؤولين ثقيلة وكانا يغيضان شيئا في بعض الاوقات، وجهد العناية بهما تغيير كامل عن الحياة التي تعودتها، وغالبا ما شعرت بارهاق ولعل هذا زاد اهمالها بمظهرها - قالت:

"متى سيكون سفرنا؟"

وأدهشها أنها تنتظر اجابة بلهفة - فقال:

"حوالي نهاية الاسبوع المقبل... ربما يوم الجمعة، لنعود"

"يوم الاحد أو الاثنين، حسب تقدم العمل."

فتمتمت في قلق:

"أنظن أن تشيبي وفيونا سيكونان بخير؟ لن يرتاحا لفكرة إيابنا عن البيت."

"بالتأكيد سيكونان بخير. لن يحدث شيء مع آرائيه ونيكوس. أما من حيث عدم ارتياحهما لفيابنا، فيجب أن نعوداه، إذ قد اصطحبك مرة أخرى إلى باغوس. فإني أتدبر شراء أرض هناك."

قالت مقترحة:

"بممكننا أن نصطحبهما معنا."

كانت تدرك أن الطفلين سيخبان ذلك، ولذهشتها قال موافقا:

"سنفعل يوما... سوف نحظى - في وقت لاحق - بعطلة للترويح، كأسرة."

اكفهر وجه هيلين للحظة عابرة... كانت كلما رأت أسرة تنزه، أو تقضى عطلة، أو حتى تتسوق، شعرت بالفراغ الفظيع الذي عانت منه بعدما فقدت زوجها، وابنها، لذلك تحبست لفكرة ليون، وقالت وهي غير واعية للفراغة في صوتها:

"ألا نستطيع أخذهما هذه المرة؟"

ولكن ليون قال بحزم قاطع:

"ليس في هذه المرة يا عزيزتي، فهذه الرحلة تغيير لرتابة حياتك كما قلت، ولن يكون ثمة تغيير ولا راحة إذا اصطحبنا هذين الوغدتين."

ولم تجادل إذ كانت تعرف هذه اللهجة - وارتاحت في مقعدها تسرح بصرها في البحر، شذى الزهور البرية ينساب على السام الجبل، ليمتزج بعبير زهور البرتقال القوي - وتمتمت:

"لا وقت كالربيع!"

فقال ليون:

"له بهجة خاصة، لكنه لسوء الحظ قصير جدا، بينما الصيف طويل أما شتاؤنا - إذا جاز تسميته كذلك - فهو محدود كما تعرفين."

في أقل من أربعة أشهر رأت تعاقب الخريف والشتاء، وهما هو ذا الربيع، وستكون بقية العام صيفا يتشمس متألقة وسفارات ساحية.

بدأت نسمة باردة تهب من البحر، فالتفت ليون متسائلا:

"أعود للسيارة؟"

كان الوقت مبكرا بعد، وبرغم زهد هيلين السابق في الخروج، لم تعد ترغب في تعجيل العودة... والتفت إليه مبتسمة وقالت:

"هل نستطيع البقاء فترة أخرى؟"

فقال:

"ما لم تكوني تشعرين ببرد."

ثم أردف بحزم فجائي:

"كلا... إنك تتعرضين للبرد، هيا، لننخذ طريقنا عائدين للسيارة."

ولكن في طريق العودة، جنح بالسيارة إلى مقهى أبيض غير مرتفع تألفت فيه أعضاء ملونة، وشرفته الطويلة الواسعة تغابل البحر. وكان بعض الانكليز يجلسون إلى المائدة التي قادها إليها. وسرعان ما ابتسموا مرحبين وتحرك شاب بخفة ليحضر مقعدين.

"ما أطيب أن نراك يا ليون، استمتعنا جميعا أنك في سيات منذ زواجك."

كان المتكلم شديد السهرة، ملتصيا، وأدركت هيلين - حتى قبل أن يخبرها ليون - أنه فنان... فقد قال ليون وهو يضحك:

"لم يلق قبل تكريما بعد، ولكنه سيحظى به... فهو موهوب، وسوف يضع اسم لابتوس على الخريطة يوما."

قصاح شاب آخر في استياء:

"إن اسم لابتوس على الخريطة..."

وتحول إلى هيلين قائلا:

"لدينا هنا مجموعة صغيرة لطيفة من الفنانين، من المحتمل أنك تعرفين؟"

فابتسمت هيلين وقالت:

"سمعت بهم... قالت أحدهم على السفينة عند هدومي... أجل، روبرت! إنه كثيرا ما ينكلم عنك. إنه موهوب الآن. وصوره في كل متاجر الهدايا بالجزيرة. نعم، إنه والله ذكرك... ويكن لك أعجابا كبيرا."

شاعت في وجه هيلين ابتسامة سعيدة، وتحوّلت تلقائيا نحو زوجها فإذا الابتسامة على شفتيها ترى ما الذي فعلته. كان وجهه مكفهرًا ومتجهما، وأسّرت تشيح بصرها، بينما أحضر الساقى الجيتسم الشراب ورفع راسها بتعاسة، وقد حيرها مسلك زوجها، ورد فعلها إزاءه - غضب وتجهم كثيرا في الماضي، فلماذا تأخذ ما طرأ عليه حديثا هذه المرة؟ وسرعان ما أقبل آخرون، وحصل التعارف، وسيطر الحرج على الجميع. وكانت النسوة يرشحن هيلين بنظرات جانبية، فأدركت أنها يعجبين بما أعجب ليون بيتر - ومما زاد حيرتها أنه مشهور بكراهية النساء، لكنه إذا أحب أن يقع في غرام امرأة فائنة لا يقوى على مقاومتها... كانت هيلين تقرأ أفكارهن بدون عناء، ثم فاحت عيني زوجها ترمقاتها بانتقاد، فخيّل

اليها أنه يخجل من عدم اهتمامها بأناقتها. لماذا أخضرها
لثلاثي بأصدقائه؟ ولمحته يتسم فجأة، فإذا قلبها - بلا مبرر
تعرفه - يقفز منتعشا، وعادت طيلة الساعة التالية مغتبطة
كأي شخص ممن حولها، وقد نسيت مظهرها وأخذت تحدث
فيل عن أعماله الفنية.

قال بعدما أخبرها عن أعمال روبرت:

"يقول روبرت إنك ترسمين!"

قالت وهي تلورد عندما سكبت كل الخاضرين منشوقين:
"رسومي ليست جيدة، فلم ألتحق بمدرسة للفن، ولا تلقيت أية
إرشادات."

قال جيرى مؤكدا:

"الفنان الصادق يرسم بوحى من قلبه."

هو الآخر يقيم في لابيئوس ويعمل في نيقوسيا. وإقامته
في الجزيرة مهددة، إذ كان على مخدمه أن يطلب ترخيصا له
بالعمل كل ستة أشهر. وكان موقنا بأن طلبه سيرفض ذات
يوم. وعاد يقول:

"لا بد أن ترينا انتاجك يا هيلين، فكل منا يهتم بالآخر هنا."
قال ليون رافعا كوبه الى شفتيه:

"أنا لم أر شيئا منه بعد. أظن زوجتي فنانة خجول."
قالت بضحكة صغيرة:

"لم أرسم شيئا منذ مجيئي، لم تسنح لي الظروف."
فهز فيل أصبعه لها محذرا وهو يقول:

"هل يشغلك طيلة الوقت؟ هؤلاء القبارصة ممتازون في
استبقاء زوجاتهم تحت..."

وأدار أصبعه نحو الأرض، ففتح ليون فمه ليحتج، ثم رأى
أن يضحك واسترسل فيل:

"لا تخدعي يا هيلين، فزوجك يختلف تماما عنا معشر
العوزين، يستطيع أن يحيطك بدسة من الخدم إذا شاء."
وعقبت هيلين:

"ولكني لن أجد ما أفعله عندئذ ولن ألبث أن أضجر."

ولمحت أسارير إحدى النساء، فقرأت أفكارها مرة أخرى:

"أضجرين؟ ومعك زوج مثل ليون؟"

وتناولت كوبها تتأمله وهي تتبين بصر المرأة مثبتا على
وجه ليون الأسمر. كانت المرأة تغبطها، فمن تكون؟ أحست
هيلين - وهي تتعرف عليها - ببغضاء خفية تتلوى

تحت ابتسامتها، ولكنها استبعدت الفكرة حتى عندما فوجئت
بنذير سوء ينبعث من عينيها. أما الآن، فمن تكون؟ وأخذت
للصمت تصفي محاولة أن تعرف شيئا عنها، وكان كل ما
استخلصت أن المرأة سمسرة عقار في نيقوسيا. على أنها -
في وقت لاحق - علمت مزيدا، فاكتشفت سر عداوة بولا
الظاهرة لها.

★ ★ ★

انقض القوم، وبدأت السيارة تنطلق. وذهب ليون إلى
سيارته، متوقعا أن تتبعه هيلين. لكن بولا هي التي تبعته،
بينما تلكأت هيلين على الدرجات تراقبهما لعلهما كانا
يتكلمان في الأعمال. لكن فيل جذب كمها قائلا:

"ربما لا يكون من اللياقة أن أقول. لا تطمئني الى هذه...
كانت وليون... لنقل صديقين على الأقل، وبرغم كل الشائعات
أنه لا يفكر في الزواج كانت تأمل في أن تصبح يوما السيدة
بيترو. ولا داعي لوصف شعورها حين سمعت أنه تزوج
سواها."

وترك كمها - إذ التفت ليون متوقعا أن يراها قريبة منه -
ثم أردف:

"أعرف أن هذا لا يعني، وأنت ربما تظنينني أنكلم فيجا لا
بخصني، لكنك لطيفة، وهي امرأة مدمومة الضمير، وإن كانت
ذات جاذبية للرجال... أعني بعض الرجال."
ودفعها لتواصل الهبوط، وهو يقول:

"يحسن أن تنطلق، فليون ينتظر. ولكن... احذري بولا
مكسويل!"

★ ★ ★

أجل أضفى عليها الثوب جمالا. وابتعدت هيلين عن المرأة
للتأمل شكلها. كانت ذراعاها عاريتين، وكشف صدر

الثوب عن نحرها الجميل ولمع شعرها الأشقر منهذلا فوق كتفها في موجات غير مكتومة. لكن الثوب كان قصيرا، فظهر حسن قوامها. وكان حذاؤها من الجلد الأزرق اللين متينا بخزام مزخرف داكن اللون. ووضعت هيلين شالها على كتفها، ثم تناولت حقيبتها المسائية، وخرجت وأخذت تهبط التل نحو القرية، ولم تتعد كثيرا قبل أن تغف إلى جوارها سيارة روبرت.

قال روبرت:

"في الموعد تماما.. أنت بنتا شاطرة؟"

فسألت: "وهي تستريح في جاسستها؟"

"كم يبعد هذا المكان؟"

قال وهو يتجاوز انحناء الطريق، ويزيد السرعة:

"ليس بعيدا جدا. ألم تذهبي إليه بعد؟ كنت أظن أن ليون اضطحك إلى حاربه مونت، فكل شخص يذهب إلى هناك. كل الانكليز يجتمعون هناك. وفي أماكن أخرى طبعاً، لكن هذا المكان بالذات مفضل للانكليز، وفي يوم السبت سهرة عظيمة، لكم يسرني أنك استطعت الحجي.."

قالت ورتة قلق تسري بدون قصد إلى صوتها:

"يجب أن تعود في الساعة الحادية عشرة على الأكثر. سيعود ليون حوالي الحادية عشرة والنصف.."

فقال:

"سعود، فلا تخافي.."

وصفت لحظة في فضول:

"ما الذي جعلك تتصلين بي هاتفا؟ تصورت أنك لا تريدين أية علاقة بي، بعدما رفضت دعوتي لأفلك إلى المدينة ذلك الاسبوع.."

امتقع وجهها وقالت:

"أوضحت لك أن ليون لم يرتح للفكرة.."

فعاد يسأل:

"والآن؟ لماذا اتصلت بي؟"

كانا منطلقين على طريق الشاطئ، والبحر يلتصق تحت ضوء القمر وتذكرت هيلين تلك الأمسية حين جلست مع ليون على مقعد هناك، ثم اضطجبت إلى المقهى... والتقت ببولا مكسويل. وفي اليوم التالي زارت هيلين تروودي وخرجتا معا لتسقي هيلين ثيابا لرحلة قادمة غدا، واستقلتا الحافلة،

ثم سارتا قليلا وأثناء مرورهما بالهيلتون، ابصرت هيلين بولا في سيارة ليون وهي تتجه إلى القناء الخارجي. ثم دخلت بولا وليون الفندق. لعلهما جاءا للغداء وكان رد الفعل المباشر لوخزة الألم أن تسألت هيلين: "لماذا تهتم؟ ألم تكن تعرف أن لزوجها علاقات بنساء؟ أليس هذا هو ما أراد؟ أن يرضي نفسه لئلا يطالبها بشيء؟"

ولكن الأمر كان مختلفا والنسوة مجهولات لها. أما أن تلتقي بأحدهن، ثم تراها مع ليون، ولم تستطع أن تشفق خشية أن تسألها تروودي. ظلت طيلة الاصيل تشعر بتعاسة لم يكن لها مبرر، حتى إذا وافاها زوجها في النهاية ليصحبها، اضطرت لاغتصاب الابتسام وتجاهل أن بولا كانت - قبل ساعات قليلة - في السيارة، تجلس في المقعد نفسه.

وتساءلت: "بأي حق أعترض؟" لكنها لم تكن تعترض، فبدأت تبتعد.

قالت أخيراً، تجيب عن تساؤل روبرت:

"إنما شعرت برغبة في أمسية خارج الدار، فالجلوس فيها وحيدة يثير الحلق.."

قال:

"ألا يمكنك ليون في البيت أبدا؟"

وبدون أن يميلها لتجيب، أردف:

"هذا عيب الرجال هنا. كلهم يخرجون - كل مساء - ليجلسوا في المقاهي يتحدثون مع أصدقائهم الرجال، جو الأسرة المعهود في انكلترا شيء لن تعرفيه هنا. ولكن، هكذا أنتن يا نساء، تقعن في هوى الرجل الأسمر المفازل - لماذا يا إلهي، لماذا ولدت بشعر كهذا؟"

واضطرت هيلين للضحك، وظلت تضحك طيلة الأمسية، متظاهرة بالمرح وهي تشعر طيلة الوقت بشيء مؤلم ينفذ قلبها. كان في دخلتها فراغ غريب، عرفتة فيما مضى، ولكنها شعرت به لأول مرة منذ مجيئها إلى قبرص.

سرما أن حان الوقت للانصراف، وتمنت - وهما يمضيان في الطريق - لو أنها لم تأت. وفي منتصف الطريق تقريبا، شعرت برجة، وهتف روبرت:

"يا لعنة! شيء خرق إطار عجلة.."

اضطرب قلبها وقالت:

"هل يستغرق إصلاحها طويلا؟"

فقال:

"لا أصلحها، بل أبدل الاطار."

خرجوا وفحصا الاطار، روبرت بصبر نافذ وهيلين بجزع - لو وصل ليون الى البيت قبلها... لماذا تخاف...؟ وأرأيتيه مع الطفلين. كان العمل في الظلام مريكا، وروبرت يلقى عناء كبيرا، فراح يسب من أن لآخر وهيلين تقف بأعصاب متوترة وخفقات قلبها تتزايد كلما مرت لحظة. ونظرت في ساعة السيارة، فإذا بها تشير للحادية عشر وخمسي وعشرين دقيقة. قالت والسيارة تتساقط الذرب الصخري المؤدي الى البيت

أخيرا:

"سأهبط هنا، قف يا روبرت."

فقال:

"لن أتركك هنا في الظلام، في هذا الوقت من الليل... الآن حدث الضرر، وإذا قدر أن ينشب شجار، فسيحدث سوء نقلتك حتى البيت أو لم أنقلك، وإن كنت لا أعتقد أن من حقه أن يشكو، ما دام يسهر خارج البيت دائما."

ومضى بها - برغم رجائها الملح - حتى باب البيت. فإذا ليون يقف على قمة الدرجات، ووجهه - برغم العتمة - يحمل تعبيراً قاتلاً.

قال روبرت وقد بدأت تصعد الدرجات:

"طاب ليلك يا هيلين."

والتفتت لترد التحية، فإذا صوتها مختنق حتى شعرت أنه لا يمكن أن يكون سمعها. وأفسح لها ليون لتمر، بدون كلمة، حتى إذا صارا في البهو، التفتت وفتحت فمها لتوضح ما جرى لعجلة السيارة ولكن الكلمات انحسرت في حلقتها لغرط الخوف. لماذا تخاف هكذا؟ وبأي حق وقف يرمقها وقد بدا متأهبا لأن يقتلها. أخيراً، تكلم بصوت خافت، فسألتها أين كانت...

قالت:

"لقد ذهبنا الى... الى حاربه مونت... وعطيت احدي العجلات..."

وأقلت الدثار من أصابعها المرتجفة فسقط، ووقفت وهي ترتدي الثوب الذي أعطتها إياه ترودي. وهم ليون أن يعلق على إيضاحها لكنه سكت وعيناه الحادتان تلحان بها، وتأملان بدقة ذراعيها الغاريتين، نحرها المكشوف، شعرها الذهبي الفاتن الذي أقلت بفعل الريح أثناء انتظارها

في الطريق. كانت وجنتاها عابقتين وشفتاها منفرجتين في قوس ناعم رقيق. وهبطت نظراته الى ذيل ثوبها وتوقفت. فلما رفعهما أخيراً الى وجهها ثانية، كان في أغوارهما القاتمة شيء أفزعها أكثر مما أفزعها أساريه القاتلة حين غادرت السيارة وحاولت أن تتخلص من الخوف الذي سد حلقتها، وأن تتكلم، لكنها - بدلاً من ذلك - انحنت فالتقطت دثارها. لكنه أخذه وطوح به الى مقعد. وشهقت متلفتة حولها وكأنها تبحث عن مهرب، هائمة:

"يا إلهي، إنه ليس في طور الساني."

وهتفت بصوت مختنق، وهي تسائل نفسها أكان الذعر في عينيها ظاهراً كما كان في صوتها:

"ليون، إن... إن لي حقاً في الخروج."

قطع عليها الحديث بصوت ناعم:

"هل تتركين الطفلين وحدهما في البيت؟"

ونسيت ذعرها في لهفتها على الطفلين وقالت:

"ليسا وحيدين... قلت لأرأيتيه... لا بد أنها مكثت..."

قال:

"انصرفت أرأيتيه في موعدها المعتاد... وهي تحسبك في البيت."

وبدت نظراتها حائرة، وهي تقول:

"سألتها أن تمكث... ما كنت لأغادرهما وحيدين أبداً وإنك لتعلم."

"الواضح أن أرأيتيه أساءت فهم ما أبلغتها... إنك تعرفين جداً صعوبة فهمها للانكليزية."

قالت هيلين حائرة:

"بدا أنها فهمت... كيف علمت بانصرافها في موعدها المعتاد؟"

قال:

"عدت الى البيت في الساعة التاسعة. وكان كوخها مضاء حين مررت به، ورأيتها فيه."

وسكنت لحظة، واشتكت نظراتها بنظراته ثم استأنفت:

"عندما لم أجدك هنا، كان طبيعياً أن أتساءل عما جرى. كان الطفلان مستيقظين، لكنهما لم يستطيعا أن يخبراني أين كنت، فذهبت الى أرأيتيه، ولم تكن لديها هي الاخرى فكرة

عن مكانك."

شيء واحد علق في ذهنها: عاد ليون في التاسعة. لماذا عاد مبكرا بعدما أخبرها أنه سيتأخر؟ اعتقدت أنه كان في نيقوسيا يقضي السهرة مع بولا. ولكن هل يحتمل أنه فضل البيت؟ وبدافع غريزي تقدمت منه، وحذقت في وجهه يتسائل وقالت:

"لو عرفت أنك ستعود مبكرا ليون، لما خرجت."
بادر قائلا:

"هذا واضح."

وعادت عيناه تطوفان بقوامها الجميل، ثم عاد الوميض المتأرجح إلى أعماقهما، وسألها بخشونة:

"كم مرة تفعلين هذا؟"

أسرعت تقول:

"هذه أول مرة..."

"لا تكذبي! لا تقفي هكذا وتكذبي علي! كم مرة خرجت مع هذا الرجل؟"

عادت ترتجف، ولكنها جاهدت ليظل صوتها ثابتا، وقالت:

"إنها المرة الأولى. في أية حال من حالي أن أخرج."

قال:

"هل من حقلك أن تخرجي مع رجال؟"

وبرغم خوفها، ارتفعت ذقنها بشمم وقالت:

"رجال! إنما ذهبت مع روبرت لأن... لأن..."

لم تحد كلمات لتخبره بأنها ظنته مع بولا؟ ولكنها قالت:

"لأن بقائني وحيدة هنا لا يسر... فأنت تخرج كل مساء تقريبا يا ليون."

لماذا التذلل؟ لم تخبره بأن من حقها أن تسري عن نفسها؟ إنها ليست طفلة حتى يسألها عن غدواتها ورواحها. لذلك أردفت:

"سأخرج كلما راق لي، ولا تستطيع أن تمنعني."

رباه ما هذا الذي قالته؟ لماذا لم تلزم الحذر؟ انحسر الدم عن وجهها تماما، وحاولت أن تهرب إذ تقدم نحوها بخطوة سريعة، ولكن ساقبها فذلناها، ووجدت نفسها في عناق يهشم القلوع بلا رحمة وقال:

"هل ستخرجين حين يروق لك، مع الرجال؟ ستتايقين لاجلهم، وتبدلين جذابة. أما لي، فستبدلين دائما كعجوز قروية شمطاء..."

"أرجوك يا ليون، إنك لا تفهم. لم أحاول أن أبدو جذابة لأي سبب إلا..."

"إلا أن توقظي الرغبة في صديقك؟"

كان وجهه قريبا من وجهها، رهيبا كجذوتي النار اللتين تجلتا في عينيه، فلم يداخلها شك في نواياه. وأردفت:

"نحنت في إيقاظ الرغبة في زوجك، وستتحملين العواقب..."

فناضلت قسوته ولكنها بعد برهة استلقت مستسلمة تيكي بصوت خافت، وأمسك بها على مسافة منه أخيرا، فلاحظ الدموع على خديها. مفاجأة هجومه والخوف الذي تملكها جعل كل عصب في جسمها يرتعش. وتذكرت ما قاله من أن القبارصة يهتمون بنسائهم ويعتزون بهن، فتبادرت الدموع إلى عينها ثانية. وحملق فيها والدموع تلح على أهدابها ثم تنحدر على وجهها. كان لمراها باكية تأثير عجيب عليه فإذا كل غضب وضراوة يتلاحيان فجأة، ومر بأصبعه على وجنتيها محو دموعها بحركة حنون، وهتف:

"لا تبيكي يا هيلين!"

لأنه يمحو قسوته منذ لحظة. وأذهلها تصرفه، ولكنه بعث

بها أملا. قلما أقالها أخيرا، فطلعت إليه وقالت:

"ما أحسبك... ستخرج عن وعدك يا ليون؟"

سيطر صدم طويل، واشتد سواد عينيه وقد استقرنا على

وجهها ورأسه على الأرض. فأجاب برفق:

"إنك زوجتي يا هيلين!"

وعشيتها مرارة طاعية. صحيح أن القبرصي لا يستطيع أن

يعيش بدون امرأة... وأية امرأة ترضيه.

٥ - دعني وشأني!

نظر الطفلان بوجود هيلين تفلق غطاء حقيبة ثيابها فيستعصي عليها أحد الطفلين . وسأل تشيبي في أسى: "كم ستفييان؟"

وبدت لمحة من السرور في عيني هيلين، وقالت: "ثلاثة أيام على الأكثر، ابتسم أيها السخيف... إن من يراك يتصور أننا سنغيب شهرا".

قالت فيونا جذمة: "ثلاثة أيام مدة طويلة، ليس هذا عدلا، لم لا تصحبكما؟" لأن العمة هيلين تريد أن ترتاح، أخرجنا الآن وأتركها لحزم متاعها..."

كان ليون يقف بالباب... فقالت فيونا في اغراء: "هل من الممكن أن تصحبكما يا عمي ليون؟ سنكون مؤدبين تماما".

فقال متعجبا يقطع الحاحهما: "سأخذكما في وقت آخر".

وعندما رآيا أسارير ليون تتبدل، أطاعا على الفور، وانحنى ليون يتبين ما بالقفل، فلمست أصابعه القوية السمراء أصابعها، وإذا بها تنتزع يدها. وزم فمه واعتدل، ثم تناول يديها متعمدا وأمسكها بقبضة قوية، قال منكمما وعيناه تتأملان أصابعها الرشيقة:

"لا شك أنك تفصلين الرجال الانكليز، ولكنك - لسوء الحظ - تزوجت حتى".

فردت هيلين: "لسوء الحظ".

وجاهدت لتخلص يديها ولكن الضغط الفولاذي اشتد، وجذبها إليه، فقالت:

"هل يجب أن أذهب معك إلى فاماغوستا؟ الطفلان مستاءان... أحنى رأسه الأسمر قائلا:

"قلت إنهما لا يصيبهما أذى، نعم يا هيلين، يجب أن تأتي معي".

"ألا تستطيع الاستغناء عن امرأة لثلاثة أيام؟ أي صنف من الرجال أنت؟"

قال: "أظن من حقي أن أتوقع مرافقة زوجتي حين أسافر... كان صوته خافتا، لكن ومبضا خطرا لمع في عينيه، واحتدت خطوط الغضب البيضاء من أنفه إلى فمه. وقال:

"تبدلين مقتنعة بدعرفتك سبب رغبتني أن تكوني معي... وحاولت أن تسحب يدها، فأفلحت هذه المرة، لكن أصابع ليون انزلقت على ذراعيها وأمسكت كتفيها. قال محذرا وعيناه تتقدان:

"احترسي يا هيلين... من أجل صالك... كان وجهه قريبا من وجهها، نحىلا وقظا. ومات الرد على شفتيها فلا معنى لأن تجازف بالتعرض لهما، كما حدث منذ ليال. ثم أفلتها. وسألها:

"هل فرغت من حزم أمتعتك؟"

قالت ببرود:

"كل ما أحتاج إليه في الحقيقة..."

وخطت إلى الشرفة، فإذا مشهد البحر والسماء يبعثان السكينة. كان من الممكن أن تنسجم - قبل أسبوع وما يزيد قليلا - مع هذا الهدوء. أما الآن، فالاضطراب الداخلي يجعلها تتساءل:

"إلى متى تستطيع الاحتمال؟ وثقت به تماما حين قال - عندما خطبها - أنه لن يضايقها. ولم تتصور لحظة أن ينتهك وعده. ولكنه انتهكه، وبدون أي تعليل أو اعتذار. لم يظهر من المشاعر سوى الرغبة..."

قال ليون وهو يقف بجوارها:

"هل حزمت كل الثياب التي اشتريتها؟"

فانطلعت إليه، ولاحظت بدهشة نثار الشب في سوائفه أكثر ظهورا وقالت:

"هل حزمت ما أمرت بحزمه... لن أكسفك يا ليون..."

وساد الصمت برهة، ثم تحول لينصرف، ولكنه عاد وقال بصوت خافت لكنه كزجاجة حيوان يتأهب للانقراض:

"أنذرتك بأن تحذري، ولو أغفلت هذا التحذير،

فستحملين الثمن..

وتركها وأصابها المرتجفة على السياج، وعيناها تحدقان غائمتين في الخط الفاصل بين البحر الفيروزي الداكن، والسماء الأنقى زرقة..

انطلقا بمجرد ذهاب الطفلين إلى المدرسة. كان الصباح بهي الاشراف، ومنظر الجبال تبدل مع كل انحناءة في الطريق، وما أن بلغا العاصفة واجتازاها، حتى مضيا عبر السهل في الطريق المستقيمة الطولية، عابرين بمناطق سكنية صغيرة، لا تتجاوز أحيانا مجموعة من الأكواخ الطينية تتناثر هنا وهناك بلا تنسيق. وقال ليون وعيناها لا تبرحان الطريق: "سنذهب رأسا إلى الفندق، ثم اصطحبك إلى المدينة القديمة.."

أقلت هيلين نظرة على جانب وجهه، ثم التفتت تواصل تأمل الطبيعة. واستأنف كلامه:

"تقولين أنك لم تزوري المدينة القديمة أبدا؟ إنها غاية في الجمال، لها جو اعتبره فريدا.."

قالت بصوت جاف:

"سمعت عن جمالها.."

والتفت لحظة ينظر إليها، فواصلت إرسال بصرها خارج النافذة وسألتها على غير توقع، وهو يحول عينيه إلى الطريق:

"هل تكرهينني يا هيلين؟ كنا سعيدين في شكل معقول قبل... قبل..."

فقلت:

"قبل أن تتخذ مني متعة؟ نعم يا ليون. كنا موفقين. وكان من الممكن أن يستمر هذا.."

فمسست خافة فم المتصلب ايتسامة مريرة باهنة، وقال:

"أتظنين ذلك؟ وأنت يا هيلين، هل كنت تقنعين بهذا النوع من الحياة؟"

"عرفت أنني ما نويت السماح لأحاسيسي بالتورط... أهمتك هذا يوم حدثتك عن غريغوري وكيف خذلني.."

"لم تجيبي عن سؤالتي الرجال بشر، والنساء أيضا.."

قالت:

"النساء مختلفات، لا سيما الانكليزيات.."

فرد بمرارة:

"لا حاجة، بك لأن تخبريني بهذا.."

ثم أردف:

"ولكنني لا أزال أقول إنهن بشر، سواء كن باردات أو غير باردات، أن تجيبي عن سؤالتي؟"

قالت:

"لا يمكن أن أحلم بالانغماس في المفاخرة لمجرد التراضي.."

فقال:

"ما زلت تراوغينني.."

وانحرف ليتفادى عجوزا مسرلة بالسواد، انحنى جسمها تحت سلة كبيرة ربطت إلى ظهرها، ثم استأنف حديثه:

"إنني أعترض على مصطلح التراضي يا هيلين، فأرجو ألا تستعملي ثانية.."

"إنك تشير قطعاً إلى أنني مخطئة في استنتاجي، وهو أنك تستغلني لمتعة مزاجك.."

وأذرها تهديج أنفاسه إلى فورة طارئة من الغضب وقال:

"قلت لا تستعملي هذا المصطلح.."

فقلت متهمكة:

"إنك مليء بالمفاجآت يا ليون... ما كان ينبغي أن أتوقع منك الاعتراض على فظاظة المصطلح.."

فقال:

"يريحني أن أسححك تقريين بفظاظته. كنت قد بدأت أعجب من سذاجتك الفجة، فهي لا تناسبك يا هيلين.."

وأقبلا على أكثر أجزاء هاروشا تعبئة، عابرين خلال شوارع محفوفة بالمنازل والفيلات البيضاء، لكل منها حديقتها الساحرة المتألقة بالألوان زهورها. وكان عبير زهور البرتقال يهب خلال نافذة السيارة المفتوحة. قالت:

"إطراؤك يخبرني.."

أجابها:

"إن التهكم لا يناسبك، أرجو أن تتفاديه.."

والتفتت بسرمة وحمرة الغضب على وجنتيها وقالت:

"ألا يسمح لي حتى بحرية الكلام؟"

أجاب:

"لك الحرية طالما أنك لا تقصدين إهانتي".
ولم يتبادلا كلمة حتى بلغا الفندق. ونقلت أمتعتها إلى حجرتها فإذا مصاريع النوافذ مغلقة انقاء للشمس، ففتحتهما هيلين على الفور قائلة وهي تخرج إلى الشرفة:
"لماذا يغلقونها؟"

كان الامتداد الأزرق الشاسع للبحر الأبيض المتوسط يترامى أمامها وتحت الشرفة مباشرة تحت الرمال الذهبية. وأدركت أن زوجها يقف بجوارها قائلا:
"إنها العادة... لم تألفي عاداتنا بعد".

عادة! كانت عادة أيضا أن يعامل الرجال زوجاتهم كأنهن ممتلكات. وتلفتت فإذا بالحجرة فراش لاثنين. أهو الذي طلب ذلك؟ قيل أنها القاعدة في أحسن الفنادق أن تجهز الغرفة بسريرين منفصلين. فقالت وفي صوتها رنة اعتماد مفاجئة:
"يحسن أن أخرج ثيابي".

ولكن ليون لم يتحرك ليفتح لها مخرجاً. فاستدارت، واستندت إلى السياج تحديق في البحر ساهمة. وأحست بذراعيه يطوقانها فتبست ولا بد أنه أدرك ما يخالجها، ولكنه قال:

"من الممكن أن يكون هذا شهر غسلنا يا هيلين".

فردت:

"شهر الغسل للعشاق".

قال:

"وهذا ما أعنيه".

وأزاحته وفرت داخل الغرفة، صائحة:

"ألا تستطيع أن تدعني وشأني؟ هل يجب علي أن أعاني منك ليلاً ونهاراً؟"

وانفجرت شفتاه الشاحبتان، ووقف كالمصعوق لكنه تمالك نفسه في الحال. وتقدم بتؤدة وقبضته مشدودتان وعيناه السوداوان تطلقان شرراً. وقال:

"إذا كنت تعطين عناقى مصدر عناء، فالجواب عن سؤالك هو نعم. سأخذ ما أبتغي، عندما يروق لي".

قالت والفضب باق في صوتها، ولكن الخوف أفعم قلبها:
"لكنك وعدت".

ليتها تستطيع الفرار من هذا الرجل ولكن الطفلين

كانا يعترضان أية فكرة لتركة. وكان يدرك أنها في حوزته ما دام الطفلان بحاجة إليها. وعادت تقول:

"ألا يؤلمك ضميرك أنك نكثت بوعدك؟"

فقال:

"لا ضمير عندي فيما يتعلق بصلتي بك. أنت زوجتي، وأنا لا أخرق القواعد إذا أخذت ما هو ملكي".

وقالت بسخط:

"لا داعي لأن تذكرني بأن الزوجة هنا ملك تقنيته".

اضطربت عينها إذ واجهتا الشمس، فأسرعت تجذب الستائر على النافذة، وقد كرهت - للجرة الأولى - الشمس والسعاء الصافية. بل كل شيء يمت إلى الجزيرة التي لا مهرب منها، وأردفت:

"لكنك لن تستبقيني إلى الأبد، فبمجرد أن يبلغ الطفلان سناً كافية سأتركك".

انبعثت طقطقة خافتة من اتجاد منضدة صغيرة، فشغلتها عن الحديث، وأصغيا، هيلين بحيرة وليون بعدم مبالاة - قال بهدوء وهو يسير إلى المنضدة:

"قد تكونين أنجبت أطفالا قبل ذلك بوقت طويل".

فصاحت:

"تود أن تقيدني بهذه الطريقة؟"

فأجاب بهدوء:

"بهذه الطريقة؟"

وتطلعت مأخوذة، إذ كانت في صوته اختلاجة غريبة، كأنها يجد أشد الصعوبة في الكلام. والتفت نظراتهما، وبغير مبرر قفزت إلى ذهنها ذكرى اللوعة البسيطة التي أحست بها حين رآته مع يولا قرب الهيلتون. ولذهلها محت الذكرى كل ما جرى، وتقدمت منه وكان قوة في ذاتها لجذبها نحوه، ومدت يدا - بدون أن تغطن - في توسل، وهتفت:

"ليون".

تناول يدها فأمسكها بقوة. وعاد الدم رويدا إلى شفتيه. واكتسحت ابتسامته كل خشونة. وقال:

"نعم يا هيلين؟"

ولكنها لم تستطع الكلام، عجزت عن صياغة كلمات تعبر عن أفكارها وتصف اضطراب قلبها، ذلك الاضطراب الذي لم يعد وليد خوف. وخيل إليها أن شيئاً في كيانها يستجيب

برغم ارادتها . فقالت :

" هذه الرحلة القصيرة ... هل ... نستطيع أن نكون سعيدين
قريباً ؟ "

وحدق قريبا غير حذق ، ثم جذبها برفق ، وأحاط خصرها
بذراعه ، وتملم :

" أجل يا عزيزتي ... نستطيع ... أن نكون سعيدين . "

سرى في أعماقها شعور بالذنب لا تدري معناه . وتكلمت
بسرعة تحاول دفع الشعور عنها :

" ما هذا الصوت يا ليون ؟ ... أهو الخشب ؟ "

فهز رأسه مبتسما وهو يقول :

" إنها حشرة ، تدب في الأثاث . سنطلب من خادمة الغرف أن
ترش مادة مبيدة . "

قالت :

" حشرة ؟ كيف تدخل في الخشب ؟ "

قال :

" صفحات المناضد مثقوبة . وتطفل هذه الحشرات مدهش . "

قالت :

" أحسب أنه إذا اوتيجم طقسا كهذا فلا يد من قبول المساوىء
التي تصحب . فلا يوجد شيء كامل ! "

وابتسمت ابتسامة واهنة ، فهاد بمسك يديها ربتأملها ، ثم
رفعها بأسى وقال :

" كلا يا هيلين ، لا يوجد شيء كامل . "

انطلقا بعد الغداء الى قاماغوستا القديمة ، في زيارة
لأسباب تتعلق بالعمل - بالدرجة الاولى - كما قال ليون ، ولكنه

لم يبق في مصانع التعبئة سوى دقائق ، وقال وهو يتنلق الى
مقعد القيادة بجوارها :

" سنمضي في بساتين البرتقال . إنها متعة في هذا الوقت من
السنة . "

وكان على صواب إذ كانت البساتين تجتد أجيالا في كل
تجاذ ، وكانت هناك فضلا عن أشجار البرتقال -

أشجار اليوسفي والهامض . كانت المنطقة بأسرها كتلة زهور ،
والهواء مشبعا بعبيرها . وقالت هيلين وهي تستنشق :

" هذا رائع ، لم أر مثل هذا في حياتي . "

أوقف ليون السيارة . وأخطفى الوميض القاسي من عينيه
ومما تتأملان هيلين برهة ، وهي تقف على حافة بستان

البرتقال ، والنسيم يداعب شعرها ، متوردة الوجنتين ، وعيناها
مثالقتان . كانت ترتدي أحد الأثواب التي جعلها ليون

تشتريها ، ثوبا من القطن المطبوع بالزهور ، أبرز قسما
جسمها الشاب . وقال بصوت خافت :

" أنت جميلة جدا يا هيلين . "

واشدت حمرة وجهها . ومد ذراعه فوق رأسها ، فقطع قرعا
صغيرا ، وقال :

" زهور البرتقال مدية للعروس . "

وتاولها الفرع . وفجأة ، بدا شابا صغيرا غير واثق من
نفسه . كان التغير سريعا حتى تصورت أنها كانت واهمة .

وابتسمت له وهي تتناول الفرع المفطر وتقربه الى وجهها ،
وقال بصوت خافت ورقيق :

" أنت بارعة الجبال ! "

قالت له وقد عادا الى السيارة ، وهي ممسكة بفرع البرتقال
قرب وجهها وتتخشق عبيره :

" حدثني عن البرتقال يا ليون . أعني ما عليك ... في مصانع
التعبئة ؟ "

فقال :

" كل الثمار تنتقل اليها بعد الجمع ، فتفصل وتفرز ... تفصل
قبل تصديرها ، وتقوم نسوة بهذا العمل عادة . ثم تفرز وتعبأ
للتصدير . "

قالت :

" وأنت تملك المصانع فقط ... دون البساتين ؟ "

قال :

" أملك المصانع ... "

وساد الصمت والسيارة تمضي تحت سماء صافية . كانت
الطريق ملاصقة للبحر ، وعلى طول أحد جانبيها ، كانت هيلين
تلاحظ النباتات الغالية .

قالت وقد تار اهتمامها :

" ما هذه ؟ إنها تبدو نوعا من القصب . "

فأجاب:

"إنها غابة قصب تزرع لحماية بساطين اليرثقال من هواء البحر."

كانت البساطين تمتد حتى البحر تقريبا. واستطرد ليون:
"إننا نصدر كميات كبيرة إلى انكلترا، من الكرييفروت كما تعلمين."

كانت في صوته رنة زهوء... زهو بجزييرته ومنتجاتها... وكان كل القبارصة الذين التقت بهم مثله... أي شيء ينتج في قبرص يتفوق على كل ما ينتج في أي مكان آخر.

عندما بلغا المدينة القديمة، أوقف ليون السيارة في الساحة، ودخلا أحد المقاهي لتناول بعض المرطبات.

ولم يكن هناك سوى رجال، اتجهت عيونهم كالعادة صوب هيلين، وليون، ثم ارتدت إلى الصحف ولعب الورق والطاولة.

قالت هيلين تستعلم، وهي تراقب رجلين يلعبان على مقربة:

"هل يلعبان على نقود؟"

قال:

"على المشروب فحسب."

فرمقته بنظرة متسائلة:

"أليس لديهم عجل؟"

فضحك قائلاً:

"ما زال رأسك الجميل مشغولاً بأن النساء يعملن، بينما يقضي الرجال الوقت في التكاثر؟"

امتقع وجهها لأن هؤلاء الرجال بدون نشاط سوى اللعب وزاده امتقاعاً استعمال ليون كلمة الجميل، يا له من شخص متقلب!

تعمدت في بداية الأمر ارتداء ثياب قديمة لئلا تبدو جذابة للرجال، ولكنها تشعر بالسعادة الآن لأن ليون يعتبرها جميلة وما الذي يساوره؟ من الواضح أنه عرف من البداية أنها مصحمة على أن تستيقظ على مسافة منها. وقالت أخيراً:

"أكره أن أكون زوجة رجل فقير هنا."

رمقها متسائلاً وقال:

"أصحيح هذا يا هيلين؟"

فغضت شفتيها وقالت:

"ما أعني هذا... إنما قصدت أنني ما كنت أتمنى أن أولد هنا، وأكون فقيرة... إنك تعلم ما أعني."

قال:

"نعم، أعرف ما تعنين."

ونظر إلى صاحب المقهى إذ أحضر صينية تحمل فنجاني قهوة صغيرين وكوب ماء. ثم استأنف:

"لكن النساء هنا لا يابهن. تعودن هذا، طالما أنهن يهتدين أخيراً إلى زوج فهن مقتنعات."

تناولت رشعة من قهوتها وقالت:

"تلك الزيجات... الزيجات التي لا تقوم على حب... كيف يتسنى؟"

قال:

"الأمر بسيط، فمثلاً تزوج بافلوس، أحد أبناء عمي أخيراً فتاة من قرية صغيرة في الجبال. سعى إليه أخوها وأخبره بميزاتهما، قائلاً بوسعها أن تقدم بيتاً. فوافق بافلوس على اللقاء بها، والواضح أنها راقت له فقبل الزواج منها على الفور."

وتناول جرعة ماء، وومضت عيناه بابتسامة حيال الصدمة التي بدت على هيلين، التي سألته:

"أهذا كل شيء... الأخ يدبر الأمر والشاب يتأملها لكن هذا بشع!"

فقال:

"إنه الاجراء الطبيعي."

فصاحت:

"ولكن الفتاة... أليس لها أي رأي في الأمر؟"

قال معترفاً:

"رايها لا يذكر... بل إذا رفضت فإن أباه وأخواتها لا يصغيان إلى رأيها لكن ينذر أن يحدث هذا. الرجل يحسن صنيعاً للفتاة بأن يتزوجها، ولذلك تعترف بفضله ولا تفكر في رفضه."

فقالت:

"إنه يبدو نوعاً بغيض التدبير، لا بد أنه مخرج للفتاة إلى حد مؤذ."

فقال وعلى وجهه وميض ابتسامة:

"أبداً إنها العادة يا عزيزتي."

★ ★ ★

خرجوا الى الساحة فإذا ضوء الشمس ينعكس على جدران
القصر البندقي الفخم . وكان يواجهه مبنى آخر شامخا . فقال
ليون :

" هذا هو الجامع ... هذه المدينة القديمة هي - كما تعلمين -
الحي التركي في فاماغوستا . أتودين دخول الجامع ؟"
فاومأت برأسها . وخلعا أحذيتهما ودخلا المبنى الجميل -
الذي كان يوما كاتدرائية القديس نيقولا ، وأقامها ملوك
قبرص قبل قرون كثيرة - حتى اذا خرجا ، قال ليون :

" سنقوم الآن بجولة في السيارة !"

وأخذها لتري الجدران البندقية ، والقلمة ذات البرج
المشهور حيث أخرجت قصة عظيم . وخيل الى هيلين في
جولتها أنها رأت مئات الكنائس ، تحولت الى أطلال .

قال ليون :

" كانت ثلاثمائة وخمسة وستون كنيسة ."

فهمت :

" غير ممكن ... في مثل هذا المكان الصغير ؟"

قال :

" هذا حقيقي ، اختفى معظمها طبعاً ، ولكن قسماً كبيراً بقي ."
وتوقف مراراً عدة ليريها بقايا النقوش الطونة
والفسيفساء . فقالت :

" لا تزال باقية بعد كل تلك السنين . هذا يبدو مستحيلاً !"

فقال :

" المناخ يساعد على حفظها ... فالنظر هنا قليل ."

اتجها في السيارة الى بوابة البحر ، التي دخل ريتشارد
قلب الأسد خلالها الى المدينة ، ثم تركا السيارة ، وسارا على
الأقدام . لم تشعر هيلين بمثل هذه السعادة منذ أمد طويل .
وأمسك ليون بيدها اذا انزلت على حجر متفكك ، واحتفظ بها
طيلة سيرتهما .

عندما عادا الى غرفتهما في الفندق ، وضعت هيلين غصن
زهر البرتقال في كوب ماء . وراقبها ليون وهي تخرج من
الحمام ، فابتسمت ووضعت الكوب على منضدة الزينة ، وكان
ليون قد دعا بعض أصدقاء العمل للعشاء فسألته ، وهي تطرح
ثلاثة أبواب كوكيتيل على السرير :

" أيهما أرتدي ؟"

أدهشها سؤالها بقدر ما أدهشها ، فقبل سويحات قلائل ما
كانت تحلم باستشارته . ورفع ثوباً ، ثم هز رأسه وتناول آخر .
كان الثوب القصير الواسع ، من القطن المائل الى الصفرة
يلائمها كل الملاءمة . فقال :

" هذا !"

كان اثنان من أصدقاء ليون انكليزيين - والثالث قبرصياً
يونانياً ، وكان يانيس يني أول من وصل ، فنظر باعجاب الى
هيلين حين تعرف اليها ، وأمسك بيدها أطول مما ينبغي .
فسأله ليون :

" ماذا تود أن تشرب ؟"

والتفت يني اليه ، فلمح عبوس محياء ، وهتف :

" آتغار يا ليون ؟ كلا ، ليس مني !"

وجلس على مقعد مرتفع بجوار هيلين وقال :

" سأشرب رتسينا اذا سمحت ."

يغار ؟ وحدقت هيلين في زوجها ، وكان يرتدي حلة أنيقة من
التيل ، ذات لون رمادي جذاب مشوب بالزرقة . قميصه الأبيض
يبرز سمته ، ولدهشتها وعجيبها شهرت بلمسة فخر ، فتضاعفت
الحمرة الى وجنتيها عندما التفت ليون ورمقها بنظرة باردة .
يغار ؟ كيف تنشأ غيرة بدون حب ؟ وما لبث ليون ويانيس أن
اندمجا في حديث عن العمل . وسرعان ما وافاهم صديقاً ليون
الانكليزيان (ريك وستيفن . وفرحا أيضاً بلقاء هيلين . تبينت
أن الانكليز ... برغم كثرة المقيمين منهم في الجزيرة - كانوا
يتلهفون للقاء معارف جدد من انكلترا . وعندما علقت على
هذا ، قال اريك :

" هذا صحيح ... ومع هذا فنحن في كل مكان من الجزيرة ."

وقال ليون دون ضغينة :

" سرعان ما سيفوق الانكليز عدد القبارصة . الناس يغادرون
بلادهم فراراً من الضرائب ."

والتفت ستيفن الى هيلين مبتسماً وقال :

" هكذا يقتني زوجك وأمثاله الثروات ."

وأضاف بايجاز :

" الأرض !"

الأرض ، ومصانع التعبئة . هل كان ليون واسع الثراء ؟ ما
أغرب أن تكون زوجة جاهلة تماماً بشؤون زوجها المالية . لم
تكن لديها أقل فكرة عن دخله .

"لماذا يا هيلين الجميلة؟"

واضطرب شيء ما في كيائها ولكنها أبت أن تفسر هذه الهدنة التي التزمها، وكل منهما يوقن أنها تتوقف في نهاية الرحلة... وتمتعت وهي تحاول أن تتبين ما في عينيه:

"كنت أفكر في أمر ما..."

فقال وفي صوته اصرار:

"ما الذي كنت تفكرين فيه فجعل وجهك يحمر هكذا؟"

هزت هيلين رأسها وهيظت يده على يدها، فأجسكها باصرار حال دون تخطيطها العصبي على الرمال، وقال:

"الجو حار، انزلي إلى الماء؟"

وتهضت على الفور، بعدما ارتاحت لاقتراحه. وسارا إلى حافة الماء يدا بيد كعاشقين. وانطلق ليون في الماء بعيداً، لكن هيلين بقيت قريبة من الشاطئ. وما لبثت أن طلعت فجلست على الرمال الدافئة، وعينها تتابعان رأس ليون عن بعد. لوح لها بيده فلوحت له. كانت مثل هذه الزمالة جديدة عليها، لم تعرفها مع غريغوري -وعجبت- وهي تسترجع علاقتها بغريغوري -أنهما لم يكونا متقاربين في الواقع. وما كانت تعتبره زواجا سعيداً، كان في الواقع مجرد تعابش كثير ما وصفه الناس بأنه مريح. أما السعادة؟ وتمثلت لها صورة ترودي واشراقتها كلها ذكرت زوجها.

تمتعت هيلين لنفسها: وانقضى على زواجهما ست سنوات! أجل، كانت حقيقة لا يمكن إنكارها، كان ترودي وناسوس، متحابين اليوم بقدر ما كانا يوم زواجهما.

كانت ترسم على الرمال حين وصل ليون. فقال وهو يمسك بيدها:

"ألا ترسمين لي؟"

قالت وهي تستجيب إذ جذبها فأوقفها:

"لست بارعة يا ليون..."

كانت قطرات الماء تتلألأ على جسمه الأسمر. والتمعت عيناه وهو يتأمل كل صغيرة في قوامها الممشوق،

وبعد العشاء انتقل الجميع إلى جلهى ليلى - وأخذ النعاس يغالب هيلين شيئاً فشيئاً، حتى باتت مستعدة لأن يحملها زوجها إلى الغرفة حين دخلوا الفندق في الثالثة صباحاً.

بعد افطار متأخر خرجا إلى الشاطئ مباشرة. وكانت الشمس حارة، فاقترح ليون أن يسبحا. ولدهشة هيلين لم تشعر بأثار سيئة نسبة إلى الليلة الفائتة، بل كان وجهها يتألق صحة وهي تسير إلى جواره نحو الماء. وسبحا قليلاً ثم استلقيا تحت الشمس، وبعدما تناولا غذاءهما قال ليون:

"سأضطر لأن أتركك زهاء ساعتين فلدي عمل، ستكونين على الشاطئ أكثر راحة منك في السيارة الحارة..."

وسألت هيلين نفسها، وهي تتأمل بهفضول: هل كان يجد هذا العمل حاضراً حقاً؟ على أنه لم يغب أكثر من ساعة ونصف الساعة، ثم فلتحت عينيها فإذا به يقف في ثوب السباحة، طويلاً، أسمر، وسيما بدرجة تفوق التصور. منذ متى كان واقعاً يتأملها متفرساً؟

استوت جالسة، يغشاها الخياء، وقالت:

"عدت مبكراً..."

قال وهو يجلس باسطاً ساقيه الطويلتين:

"لو صدقت ما تراه عيناى لقلت أنك سعيدة؟"

ومال على أحد مرفقيه يحدق فيها قائلاً:

"هل أنت سعيدة يا هيلين؟ أم ترى لا يجوز لي أن أوجه ذلك السؤال؟"

واستمرت ترسم بأصابعها صورة على الرمال. هل كان يريد أن تحفل به، أم أنه يريد ما مجرد جاريته الطيبة؟ من المؤكد أنه كان يريد شيئاً يفوق العلاقة من جانب واحد ويتخطى أن يأخذ بنفسه ما كان يعتبره حقاً له، لكنها لم تمنحه شيئاً وما كان يحتمل أن يرضيه فتورها وهو المتأجج الهوى. وربما عجزه عن ترويضها كان يجرح كبرياءه. إذ علمت هيلين من ترودي أن الحب لدى اليونانيين عامة فن وهم يدركون أنهم متفوقون فيه عن سواهم. قالت ترودي في حبل:

"الانكليزي ناشئ في هذا الفن، إذا قورن بهم. ولو قدر لليون أن ينكت بوعده، سنشعرين أنك في نعيم! "

دفعت ذكرى هذه الكلمات الدماء إلى وجه هيلين. واختار ليون هذه اللحظة بالذات ليرفع رأسها بلمسة رقيقة تحت ذقنها. ومن الغريب أنها لم تقاوم حركته. وقال:

والمصق ذراعها بذراعها فجفقت ساعدها وهي تضحك . وقال :
"بالنسبة الى رسمك هذا - أنا الذي سيحكم ، هل هو جيد أم
لا . عندما نعود الى بيتنا سترسمين لوحة ."
فقالت :

"كلا ، أين ستضعها ؟"

"قبا ، رده ناعما ."

"سأعلقها في مكتبي ."

وشعرت بهزة سعادة . لم يكن لغريغوري رأي في إنتاجها ،
بل كان يقول صراحة أن صورها ينقصها الشعور ورفض أن
تعرض شيئا منها .
قالت منذرة :

"ربما يتغير رأيك حين تراها ."

فقال :

"إن الغير رأيي ."

لماذا كان يريد لوحة لها معلقة حيث يستطيع رؤيتها
باستمرار ؟ هل لتذكره بأنه يمتلكها ؟ وأبعدت هذه الفكرة ،
فمهما كانت عينا ليون ، كان ينسم باخلاص صادق أعجبت
به ، فالتاحية العاطفية من طبيعته شيء قائم بذاته ، أدت
قوتها الى نبذ النوايا الطيبة التي كانت لديه حين غول على
الزواج منها . وكان لنكته بوعده ، وعدم اكترائه لمشاغرها ،
أسوأ الأثر على رأيها فيه . ومع ذلك كانت حوقنة بأنه في
جوهره رجل صالح ، تستطيع أن تعتمد عليه وتركن اليه .

سارا ببطء الى حيث تركت هيلين منشفة الشاطئ ،
فالتقطها ليون وساعدها على ارتدائها ، ثم ارتدى إزاره . ولم
يكن على الشاطئ سوى افراد قلائل من الفندق ، يستمتعون
بالشمس ، وتساءلت هيلين :

"أترى زوجها كان يعرف أن زوجين يشغلان مائدة قريبة من
مائدتهما في الفندق ، راها يراقبان رعايته لها باهتمام ؟"

قال :

"أرقعي رأسك !"

فأطاعت . . . واضطربت عيناها إزاء تألق الشمس ، ومست

أصابعه عنقها ، ثم هز رأسه وابتسم لها في حنان وقال :

"لو لم يكن هناك من يرقبنا لقبلتك !"

ذهبا في اليوم التالي الى لارناكا ، وراها يتمشيان على
الشاطئ وتناولوا بعض المربطات في مقهى صغير

٩٠

تحت النخيل ، ثم استقلا السيارة الى البحيرة المالحة الكبيرة ،
التي ترتادها الطيور الموسمية . وأعجبت هيلين بهذه الطيور
فقال ليون :

"من حظنا أن نراها ، فسترحل قبل نهاية الشهر ."

وابتسم لها مضيئا :

"كنت أدرك أن هذا المكان سيروق لك . والآن ، أتودين أن
توغل في الجبال ؟"

وشاب صوتها شيء من الشغف وهي تقول :

"نعم يا ليون . هل نحن بعيدان عن ليفاكارا . أتمنى رؤية
النساء تقمن بأعمالهن الحرفية وأود شراء بعض منتجاتهن"
إذا أمكن .

قال :

"هذا ممكن طبعاً ، ولست مضطرة لأن تسأليني يا هيلين ."
وصلا الى قرية جبلية صغيرة ، تصنع فيها منتجات ، لاسيه
ليفكاريثيكا ذات الشهرة العالمية . فاشترى ليون أغنية
للموائد ومناشف ومناديل وثوباً مطرزاً بشكل فخيم ، مزين
الصدر ، والأكمام بأرق الدانتيل .

وشعرت هيلين إزاء ثمنه ، وقالت :

"إنه باهظ . . . والأبيض يناسبني ."

فتلفت ليون حوله قائلاً :

"حقاً ، الأبيض يلائمك ."

ودعتها صاحبة المتجر الى التجربة . . . وهزت هيلين رأسها ،
لكن ليون ألح . كان الثوب مناسباً لها تماماً ، وجميلاً ، وحبيبت
أنفاسها إذ رأت صورتها في المرأة ، وهتفت :

"إنه جميل جداً ولكن الثمن عال جداً ."

فقال ليون :

"لا شيء يعتبر غالياً لك يا عزيزتي ."

ثم أردف بصوت خافت :

"ألم نقل أننا سنسعد ؟"

وعاد يقول :

"هل أنت سعيدة يا هيلين ؟"

كانت في صوته رجفة ، وراح يتأمل مديها متلهفاً في
انتظار الجواب وارتعشت ابتسامة على شفتيها الجميلتين ،
وقالت بصوت خافت وبحة :

"نعم يا ليون إنني سعيدة"

٩١

٦ - الطاحون لوحة جميلة

امتزج الربيع المسرع الخطي، مع الصيف على نحو غير ملحوظ، وتدفق الزائرون بالآلاف على المصايف الساحلية والجبليّة. لكن البيت الأبيض الجميل المتربع عالياً على السفح فوق لايتوس، لم يتأثر. ولم تتمالك هيلين - وهي مضطجعة في مقعد من القماش في الحديقة - أن تقر بأنها محظوظة من نواح كثيرة. فكانت حياتها - حتى شهور قليلة مضت تتسم بوحشة الوحدة والكآبة وليس فيها ما يرتجى سوى العجل لاعالة نفسها. ودار بذهنها أن القدر قام بحيل عجيبة. فلو لم تفكر بريندا فيها - حين علمت بمشروع ارسال تشيبي وقيونا الى عجمها ما كانت وضعت قدما فوق هذه الجزيرة البديعة، ولما بسخت لها قرصة اتخاذها موطناً. مع أن الحياة تحتفظ بمشكلات لا بد منها كزواجها من ليون بدافع رعاية الطفلين.

خفقت الرحلة من توتر علاقتها الجديدة بليون ولم تستطع أن تنسى أنها - بالنسبة اليه - مجرد امرأة أخرى، وأنه عاشرها بدون حب، فلم تكن قادرة على أن تغفر له انتهاكه وعده البداي وتنهدت متذكرة أنه وافقها على أنه لا يوجد شيء كامل. ولقد انسابت وليون لنمط حياة محتمل. وعليها أن ترضى بهذا، فهذا أفضل من السخط الذي كانت تعانيه - في البداية كلما اقترب ليون منها.

رفعت رأسها عندما أقبل ليون، واغتصبت ابتسامة، وقالت في أدب:

"كان يومك حافلاً بالعمل؟"

فأجاب:

"الى حد كبير... وأنت؟"

فقالت:

"أظنني أجنح الى الكسل. آرايتي تقوم بكل شيء؟"

فوقف يتأملها وهي عينيه الداكنتين ابتسامة، ثم قال:

"اكتسبت سمرة فاتنة يا عزيزتي."

كانت اطراءاته تصدر عفواً... ومتباعدة... ليبتها تصدر من القلب وعن صدق. لكنه كان يقدمها لنساء غيرها في الحاضى وربما لسواها في المستقبل.

أحضر مقعداً وجلس أمامها. وقال:

"ستزور عمّة لي هذا الصاء، شكّت لي هاتقيا أنها لم تقابلك."

فسأله:

"عمّة أخرى؟ لم تذكرها لي مطلقاً."

فقال بابتسامة واهنة:

"ما أكثر الأشياء التي لا يزال كل منا يجهلها عن الآخر." واكتفت بالايحاء، فسألها:

"كيف يحدث أن الحديث الطبيعي صعب جداً بيننا يا هيلين؟" أدهشها السؤال، إذ بدا في إحدى حالاته اللينة، اللطيفة، التي تبعث فيها شعوراً بالذنب لا تدري له سبباً. فقالت:

"لا أظن أن الحديث متعذر."

فقال:

"قلت: الحديث الطبيعي. كان ينبغي أن أقول أن تبادل المعلومات الحميمة صعب بيننا."

فقالت:

"أحسب أن هذا أمر مفهوم... نظراً للظروف."

تحول ليون عنها، فضاقت عيناه إذ كانت الشمس تواجهه، وسرح بصره نحو السفوح المكسوة بالغابات والزرقة الشاسعة خلفها. ثم قال:

"لماذا تواصلين الشعور بهذا النفور مني؟"

كانت كلماته تنطلق بصعوبة، وفي حرارة. وأردف:

"لقد حدث ما حدث."

فقالت:

"ربما لا ينبغي أن نعود الى هذا يا ليون، تكلمنا من قبل، فكانت النتيجة دائماً توتراً بيننا. يجب أن نمضي في الحياة معاً، فلنحاول أن نجعلها تسير بسلام بقدر ما نستطيع."

تحرك رأسه فتحول الشيب في سواقفه الى قصة، وسألها:

"أستطيعين ترويض نفسك على هذا... الى الأبد؟"

واستدار نحوها قائلاً بصوت خافت:

"إننا لم نحاول، ألا ترين أن نحاول... أن... أن؟"

فبادرت:

"هل تتوقع مني حيا؟"

تسربت رنة المראה الى صوتها، وغامت عينها في تفكير مهموم فقال:

"كلا يا هيلين، لا أتوقع، ولكن، ما أرى أن أشعر بذراعيك حولي أحيانا."

وسكت عندما رآها تجدد متصلة، فاسترسل مسرعا وكأنه يريد أن ينسيها لحظة الضعف الى حد الهوان:

"كلا، لا أتوقع منك حيا. إنك لا تريد أن تمنحني، أخبرتي من البداية أنك لن تسحي لانفعالك العاطفية بأن تورطك مرة أخرى... بسبب ما فعله رجل غيري."

وسجعت أصواتا تتردد على سجع التل... كان تشيبي وفيونا يلعبان مع أطفال القرية، لكن صراخ فيونا يزداد ارتفاعا. قالت:

"قلت إنني لن أعرض نفسي لذلك النوع من الألم القلب ثانية."

فقال:

"هل تعتقد أن هذا المسلك معقول؟"

قالت:

"لن أصبح لرجل آخر أن يؤذيني ثانية. لن أقع في الحب ثانية."

فسألها:

"ومع ذلك تتوقعين الحب مني؟"

فنظرت اليه بخدة، وقد حيرتها كلماته وقالت:

"لم أتوقع منك حيا يا ليون."

احتدت نظراته واكفهر وجهه كبرياء، وقال:

"إذن لماذا الاعتاض؟"

وبدأت تخهم ما بد، فقالت:

"إنك تعرف السبب - ليس لأنك تعاشرني بدون حب، وإنما لأنك تفعل فحسب!"

فهز كتفيه بصبر نافذ وقال:

"إنك غير واقعية ولا منطقية."

وقالت:

"غير منطقية لأنني توقعت أن تلتزم بوعدك؟ أنت عرضت علي الزواج من أجل الطفلين، ووافقت أحيانا بأنك ستفي بوعدك. فلماذا عدلت؟"

وتردد مترويا، قبل أن يقول:

"سأكون صريحا جدا يا هيلين، ولن يروق لك هذا - أول ما رأيته كنت خلوا من الزينة والتأنق، وليس فيك ما يثير انلباه أي رجل، فلم تطرا ببالي الرغبة فيك."

وسكت يتأمل الدماء تتصاعد الى وجنتيها، ثم استرسل:

"وبرغم أنك قبلت أن تكوني زوجتي، لم تكوني - فيما يتعلق بمشاعري أكثر من خادم... مربية للطفلين. ولكن سرعان ما بدأت أتبين أن خلوك من الزينة والأناقة كان متعمدا، وأخذت أرى أنك قد تكونين..."

فصاحت:

"مثيرة!"

والتمعت عيناه بنذير خطر وقال:

"نعم، إذا كانت هذه هي الكلمة التي تودين استعمالها. كنت أنوق الى معرفتك على حقيقتك، فأبدت رغبتني في أن تحصلني على ملابس..."

فقالت:

"كني أتأنق ارضاء لفضولك؟ لأصبح دمية جميلة؟"

وسكتت إذ رأت محياه... كانت تعرف احتياج غضبه. ولكنه قال متهكما:

"لكن تأنقت لشخص غيري - لذلك الانكليزي اللعين!"

قالت:

"كلا..."

فقال:

"بل فعلت!"

فردت:

"ليكن... رأيته ووجدتني مثيرة. أهذا عذر لتنكث بوعدك؟"

قال:

"هذا الوعد أصبح فكرة متسلطة عليك... قلت لك إنك غير واقعية. هل تظنين أننا نستطيع أن نمضي هكذا أربعين سنة أو أكثر؟"

وفي تلك اللحظة اندفعت فيونا الى الحديقة، لاهثة توشك أن تبكي وهي تصيح:

"عمي ليون! عمي هيلين... لا تدعاهم يمسكون بي..."

★ ★ ★

كان التغيير الذي ألم بليون أشبه بمعجزة، وحمل الطفلة وأجلسها على ركبتيه، وضم رأسها إلى صدره، وأخذ يربت مواسيا، فبكت فيونا، وأخرج حنديلته، وهو يقول:
"يا لله، ما بالك؟"

وأخذ يجفف دموعها، وازداد تشنجها عندما أقبل تشيبي لا هثا، يتبعه ولدان، وهم يلوحون بعصي ويصرخون، ولكنهم وقفوا جامدين عندما شاهدوا فيونا على ركبة ليون، شحبت وجه تشيبي، بينما راح ليون ينقل بصره بين زميله، ثم استقر بصره على العصا التي في يد تشيبي وصاح:
"ما هذا الذي تفعله؟"

وارتجفت هيلين نفسها للهجته، وتسارعت دقات قلبها. بينما قال تشيبي واجفا:
"إننا نلعب لعبة السجن."

قالت فيونا بين تهنئاتها:
"حبسوني في البيت التركي العتيق في الغابة... وقالوا إنهم سيتركونني هناك إلى الأبد."
فأسرع تشيبي قائلا:

"لم تكن جادين، إنك تعلمين هذا..."
فقال اندرياس وهو يرمق فيونا بازدياء:
"بل كنا جادين، إنها مجرد بنت."
وقال اليكس وهو أكثر من صاحبه حصافة:
"لم تكن جادين، وما كنا سنتركها هناك، صدقني يا سيد بيترو."

تفرس ليون في الغلامين، وقال بهدوء:
"انصرفا... سأقول لأبويكما في الصباح."
وأطاع اندرياس متجهما. أما اليكس فتلكأ مضطربا، وقال:
"سيضربني أبي."
قال ليون:

"كان ينبغي أن تفكر في هذا البنات الصغيرات جديرات بالرعاية وليس بالمطاردة بالعصي."
وابتعد الغلام بضع خطوات، ثم التفت قائلا:

"آسف يا فيونا... لن أطارذك ثانية."
وألقي نحو هيلين نظرة استعطاف، ثم انصرف. فاعتزمت هيلين أن تشفع له، عندما يصفو مزاج زوجها. وكانت فيونا مستمرة في بكائها فقالت:

"دعني أخذها يا ليون."

وتركها لها وهي ترتجف، وعينا ليون قاسيتان، غاضبتان. ونهض فأشار إلى تشيبي أن يقترب، ثم أمسك بذقنه، ورفع رأسه قائلا:

"لا بد من إيضاح كامل، ما معنى أن تسجن اختك في ذلك البيت؟"

قالت هيلين في حيرة:

"كيف تدبسونها؟"

كان البيت ظنلا خربا، وخاليا لثلاثين عاما، وليست له نوافذ.

وقالت فيونا وهي تنتحب:

"اضطرت لتسلق الجدار، ومزقت ثوبي. ثم ركضت فلتعقبوني."

ما كان ثمة شك في فزعها. وأمسك ليون بكتفي تشيبي بهزه قائلا:

"أجب عن سؤالي فورا."

كنا نلعب فحسب يا عمي ليون، اقترح اندرياس لعبة السجن، ولم يكن هناك من تحبسه سواها.

قالت هيلين:

"ما زلت لا أدري كيف سجنوها... ليس للبيت باب."
فقالت فيونا:

"كنت في الجزء المخصص للبقر."

وصاح ليون مرعدا، غير مكترث لقولهما:

"إنني أنتظر يا تشيبي، أريد معرفة ما حدث تماما."
قال تشيبي بصوت مرتجف:

"وضعناها في الداخل، وأغلقتنا بوابة المدخل."

وأمسكت هيلين بفيونا تهدئا، وهي تقول:

"أجل... هناك بوابة ثقيلة، ولكنها صدئة."

وشرع تشيبي في البكاء، فهبت هيلين بالندخل، ولكن ليون صاح وقد سرز فكه وأسود حاجبه غضبا:

"دعني هذا الأمر لي."

وسأل تشيبي:

"كيف استطعتم إغلاق البوابة؟"

فقال:

"دفعتها أنا. واليكس، وغلّام آخر هرب حين شرعت فيونا

في الصراخ .

فعاد يسأله :

"ماذا كان اندرياس يفعل؟"

قالت فيونا وهي ترمق أخاها :

"كان يحرسني، وناشدت تشيبي أن يساعدني فأبى، ثم اندرياس يقف بمصاه ليمنع هروبي ."

فنظر تشيبي إلى أخته قائلاً :

"كنت السجينة ولم تمنعني في البداية، لم تكن العمى لضربك، وإنما كانت بمثابة البندقية، وقلت أنك

تمانعين؟"

والتفتت إليه ودموعها تنساب على وجهها، قائلة :

"ما كنت أظنكم ستخلقون البوابة . قال اندرياس إنها سحرية وإذا خلقت لن يستطيع أحد فتحها ثانية، ولن أخرج من هناك ."

كاد فزعها ينقلب إلى أنفعال هستيري، فأشار ليون على هيلين بأن تدخل معها، وتعطيها دواء منوما .

تطلعت هيلين إلى زوجها في توسل، وإن كانت مضطرة للاقرار بأن تشيبي جدير بالعقاب . فقال ليون وهو يأخذ العمى

من تشيبي :

"أعتقد أن إذاقته هذه العصا على ساقيه لن يؤذيه ."

فصاحت بوجه شاحب، وهي تهز رأسها :

"كلا، يا ليون ! سيتذكر هذا طيلة عمره، وسيظل داك حاقداً ."

كانت كلماتها تأثير عجيب على ليون . فحرق فيها والخير في عينيه ثم قال وكأنما نسي وجود الطفلين :

"كانك قلقة علي وليس علي الطفل ."

قالت وعيناها لا تحيدان عن وجهه :

"نعم . . . أرجوك يا ليون !"

وعاد يسألها :

"أتزعجك فكرة أن يبغضني؟"

أجابته :

"نعم . . . إنه يكن لك إعجاباً واحتراماً كبيرين، ولا أريد أن يتغير رأيك فيك ."

هز رأسه - وأطلق زفرة وهو يقول :

"إنك عجيبة يا هيلين . . . لا أستطيع أن أفهمك ."

والتفت نظراتهما، فسرى في عينيه تعبير غريب، هل قرأ أفكارها؟ هل أدرك أنها، لا تفهم نفسها؟ أخيراً قال :

"لا داعي للخوف لن أضره ."

استعرضت هيلين ما حدث، وهي تجلس بجوار سرير فيونا، تنظر استسلامها للنوم . تذكرت كيف اجلس ليون الصغيرة

على ركبته يهدئها في رفق ويجفف دموعها . وقوله لأليكس إن البنات جديرات بالرعاية . وانتهت إلى أن ليون مزدوج

الشخصية : قط وحنون، متفطرس ومتواضع، متوسل ومسيطر . أي الحالات كان ليون الحقيقي؟ وهزت كتفها، وقطبت

ماحببها . لماذا تحفل بمعرفة حقيقته؟ لا جدوى من الانكار إنها لا تستطيع أن تظل بلا شعور نحو زوجها .

لحتمت فيونا وهي تحاول مقاومة النعاس :

"هل سيفض من تشيبي؟ لا بد أن يعاقبه ."

فقالت هيلين :

"الحضي عينيك يا عزيزتي . يؤسفني أنه لا بد من عقابه ."

فعاد تسألها :

"ألا تستطيعين أن تقول لي لعمري ألا يعاقبه؟"

فقالت هيلين :

"سيفعل عحك ما يراه صواباً ."

وصمتت فيونا، واستسلمت إلى النوم رويداً رويداً، فتسللت هيلين بهدوء وكان ليون وحيداً في الشرفة، فذهبت إليه .

وسأله :

"أين تشيبي؟"

"هي تحرقته . وعليه أن يلزمها كل يوم لدى عودته من المدرسة ."

فالت :

"إلى متى؟"

فأجاب :

"هني أقرر أنه استوعب الدرس ."

ولمض وأعطاه مقعده، وأحضر لنفسه غيره، وقال :

"أست أفهم هذا الولد . من أين له هذه الأفكار؟"

فالت :

"الواضح أن صبية القرية لا يقمن للإناث وزناً . انهم يقتدون بأبائهم ولا شك ."

فقال في فتور :

"هل كان تعليقك هذا ضروريا؟"
فتكست رأسها، ثم نهضت لتساعد آراتيه في اعداد
العشاء... ولكنه ناداها متسائلا:
"اللوحة؟ هل بدأتها أم لا؟"
فقالت:

"مجرد بداية... لا تستطيع أن تراها حتى..."
ولكنه أصر على أن يراها، فأحضرتها بخجل وقالت محرجة،
وقد أشاحت بصرها:

"لست رسامة جيدة يا ليون... قلت لك هذا"
وراحت تتأمل المرتفع المكسو بالأشجار، الذي ألف السياح
الخارجي للحديقة... فقال بصوت خافت ولهجة متقلبة
بالفضول:

"ما الذي أوحى اليك برسم الطاحونة القديمة؟"
واستدارت مقلقة عليه من وقفاتها، وهو ينشر اللوحة بين
يديه يتأملها بامعان:

"إنها تجذبني على نحو غريب، فهي في بقعة فاتنة، والعاء
ينبتق من جانب التل!"

ثم يعد يصفي إليها، وفي عينيه تعبير نصف حالم، ونصف
حزين. بدا وحيدا بدرجة اليمه، وأمسكت هيلين أنفاسها
لسبب لا تفسير له. كان زوجها في إحدى حالاته التي يبدو
فيها كطفل، فشعرت برغبة لا تقاوم في أن تحيطه بذراعيها.
وشعرت بدبيب غريب في قلبها، منذ فترة وجيزة، قال وفي
صوته رنة أسي، بأنه يود أن يشعر بذراعيها حوله أحيانا،
فتصلب جسمها، ولم تحاول اخفاء مشاعرها، لم يكن السبب
نفورا أو عزوفا، إذن، فماذا؟ وأدركت فجأة أنه ما كان
متصلبا، وإنما اختلاجة ترفع وكبرياء لمجرد ستر شعور الندم
الذي كان يخالجها كلما دار هذا الجدل بينها وبين ليون.
وأبرقت عينها استنكارا، لماذا تشعر بالذنب؟ كان ليون هو
الملوم في كل شيء، وهو الذي يجب أن يزعم الندم راحته.

وقال وهو لا يزال غارقا في أفكاره:

"كان هذا بيت جدي، كان زاخرا بالأحفاد، لكننا نفرقنا،
عندما غادر كثيرون الجزيرة بحثا عن عمل في مكان آخر - كنا
نجتمع قرب الطاحون في عيدي الميلاد والفصح، وفي كل عيد
وعطلة... والواقع..."

وسكت قليلا، ثم قال:

١٠٠

"إن الطاحون ملكي، خطر لي أنك اهتمت إليها."
أجابت قائلة:

"اكتشفتها مصادفة، وأنا أتنزه مع الطفلين. كنا نهم في
هذا الدرب الصخري، وفجأة وجدناها: صورة جميلة، والعاء
يتلألأ تحت الشمس في انحداره على الصخور."
قال والاعجاب في ابتسامته:

"ابدعت في رسمها."

واشتد احمرار وجه هيلين وغامت عينا ليون، وهبط جفناه
فأخفا ما فيهما من تعبير. أتراها أخطأت الحكم عليه؟ كانت
تصور كلما تأملها أن في نظراته اشتها. وقالت أخيرا:
"من المحزن أنها خربة، تكسوها الحشائش، ألا يمكن عمل
شيء لاصلاحها..."

فقال:

"الواقع أنني أنوي بيعها. ومن الغريب أن تختاريتها بالذات
لرسمها فإن قتل كان يقول - في الفترة الأخيرة - أن علينا
الاحتفاظ بصورة لها على حالها، قبل أن يضيع طابعها في
التحديد. والرجل الذي يشتريها ممول ثري من أبناء بلادك،
أعتقد أنه يعتزم ابقاء الكثير منها، لكنه سيحري طبعها
لتعديلات كثيرة على المكان."

أفعمت عيناها بالأسف. وخطر لها أنها غريبة الاطوار،
فالتجديدات من هذا القبيل - تحزنها دائما. وقال ليون:

"إنني واثق بأنه سيحولها الى مكان جميل. من الأفضل كثيرا
اتاحة الانتفاع لشخص ما، لا بالمكان وحده، بل بالمنظر
الطبيعي. فهو من أحسن مناظر لايبثوس."

قالت وهي تفكر وفي عينها وميض رقيق:

"نعم... البحر والجبال... ماذا يبتقي المرء أكثر من هذا؟"
وتنهدت بعمق، ونظرت نحوه. كانت عيناها تكتنان أسي،
ولكن صوته اكتسب رقة وهو يقول:

"سأعجب برسبك يا عزيزتي. كنت واثقا من هذا!"

وتلقت كلامه بابتهاج لأنه لم يستأ من رسمها.

* * *

كانت عمه ليون كريستولا تقيم في بيت فسيح من

الطراز اليوناني أقامه والدها قبل ستين عاماً، حين بلغ عدد أطفاله ستة عشر، مات بعضهم وتزوج الباقيون أو أقاموا في أماكن أخرى.

قالت مزمجرة، وهي تفتح الباب، وتفحص هيلين من الرأس إلى القدم قبل أن تمنحني لتدعها وليون يدخلان:

"بدأت أشعر بأنني مصابة بالطاعون، أو شيء من هذا". واكتفى ليون بالضحك - فلما دخلت زوجته، استدار

يقدمها، فهزت العمّة كتفها وقالت:

"انكليزية؟ لا بأس، أحسبك تعرف ما تفعل". قال في استهزاء لم تفلتن إليه العجوز:

"تم الأمر يا عمّتي كريسولا". وتساعد الدم خفيفاً إلى وجنتي هيلين، وأمسك بذراعيها فقادها برفق إلى غرفة الجلوس في أثر عمته، وهو يقول:

"حان الوقت لتحاول التخلص من هذا البيت العتيق". قالت:

"ربما يحسن أن أموت هنا... اجلسا على الأريكة... أزيحي القمط يا هيلين، فهي تظن أنها مالكة المكان".

فابتسم ليون وقدم لزوجته المقعد الذي بدا نظيفاً، وقال نعمته التي ذهبت إلى المطبخ:

"لماذا كل هذه القمط؟". قالت:

"إنها ضالة مشردة في كل مكان، وكذلك الكلاب، ولكني لا أستطيع إيواءها، فهي تنبح وأنا عجوز لا أطيق الصخب".

كانت انكليزيتها بعيدة عن الكمال، ولكنها مفهومة. وأخذت هيلين تجيل البصر فيما حولها مأخوذة، فقال ليون:

"انتظري حتى تطوف بك خلال البيت". كانت الغرفة أشبه بمخزن كبير للغلال، رصفت أرضها بالحجارة ودعمت سقفها ألواح خشبية نخرها السوس. وكانت هناك طيور محنطة جاثمة على فروع أشجار أو أقفاص أو في

أوعية زجاجية، وتبدو كأن العثة دبت في ريشها منذ سنوات. تحت الزجاج أشياء للزينة والزخارف من كعكات الأعراس، وعلى الجدران المكسوة بالخشب عشرات الصور لأعضاء أسرة

كريسولا، فيجا يدا. بينما شغلت القمط كافة المقاعد، واستلقى بعضها على السجادة قرب المدفأة الخالية.

بعد قليل عادت العمّة كريسولا تحمل صينية عليها

ثلاثة أكواب ماء، وثلاثة أطباق زجاجية احتوى كل منها شيئاً أسود غريب الشكل بحجم البيضة الصغيرة، في نهاية شوكة

فضية طويلة، وانساب منها سائل سكري أسود سميك وتاملتها هيلين في ارتياب، وأحست بغثيان ولكن بإيماءة حازمة من

رأس ليون أنباتها بأنها لا ينبغي أن ترفض.

لم يكن لدى هيلين فكرة عن كنهه، بينما ليون يتبادل وعمته حديثاً باليونانية. ثم قطبت العمّة جبينها وقالت:

"كلا... ليس جوزاً". والتفتت إلى هيلين قائلة:

"تفضلي يا ابنتي". تناولت هيلين صحناء، لكن ليون أخذه منها وأعادته إلى الصينية وقال:

"امسكي كوب الماء... والآن ارفعي الشوكة واغمسي ال...". وقطب جبينه، وعاد يسأل عمته باليونانية ثم قال:

"آه، جوز برازيلي". وحدقت هيلين غير مصدقة، بينما قال:

"اغمسي الجوزة... كلما قضمت منها". غصبت نفسها على تعود مأكولات الجزيرة، ولكنها لم تواجه أبداً شيئاً يدعو للتفوق كهذا وقالت:

"إنه اللون... ألا بد لي من تناوله؟". فقال:

"تذوقيه". وفعلت كما قال، ثم هتفت:

"أوه... إنه لذيذاً". وعجب لا عجابها الذي أرضاه. وتذوق بدوره، وأخذ يستمريء المذاق مهتناً عمته لأبداعها في صنع الحلوى:

وأرادت هيلين معرفة سبب غمسها في الماء، فقال:

"إنها الطريقة الصحيحة لتناول هذا الجوز، فالشراب السكري ينساب منها - وأنت تزيلينه في الماء".

قالت:

"ولكن هذا الجوز البرازيلي كبير". فقال:

"إنه يتضخم نتيجة طريقة الأعداد". بعد الحلوى جاء المشروب المرطبي، ثم قالت العمّة كريسولا:

"سأريك البيت!"

فرمق ليون زوجته مبتسما، وقال:

"إن تصدقي أنك في بيت، أنه واسع وبجانب اتساعه، كان في حال مذهل من البلى!"

كان هناك المزيد من الطيور والحيوانات المحنطة، المنقطة بالغبار، وفي كل مكان ايقونات أمام كثير منها أضواء حمراء دقيقة، من مصابيح كهربائية صغيرة، تتدلى أسلاكها على الأرض، وتنشايك، فهمس ليون:

"هذه أصلية تساوي ثروة!"

فنظرت عمته اليه وسألته باليونانية، فقال:

"إنني أخبر هيلين بأن ايقوناتك ثمينة للغاية!"

قالت وقد توقفت لتحرك النور الى وسط إحدى الصور:

"لا شيء زائفا هنا، إنها عتيقة جدا!"

وتوقفت مرة أخرى لتعدل رسما جائلا للقديس نيقولا، وأردفت:

"إنني أقبلها جميعا كل مساء!"

وحذقت هيلين بدهشة، فأردفت وهي تتقدمها الى غرفة نوم أخرى:

"كل واحدة منها!"

ولم تعد هيلين تتذكر عدد الغرف، وتعجبت أن تحتل عجوز مثلها الإقامة في بيت كهذا، وهمست لليون:

"إنني أموت قزعا!"

فقال:

"عاشت كل حياتها في هذا البيت فألفته!"

"لكنها وحيدة... وهذه الايقونات تحينة. وقد تتعرض لعدوان!"

رمقها في عجب وقال:

"عدوان! هذا العنق لا يحدث عندنا. إنه نادر جدا. هذا هو الفارق بين القناعة والجشع. الناس هنا قانعون، وأعتقد أن لهذا علاقة بالمتاح. فالشمس المشرقة تبعث السعادة!"

كان هو نفسه يبدو قانعا، سعيدا ولكن في مسلكه شيئا من الرغبة أثار فيها الندم مرة أخرى. وفي الوقت ذاته، أحست في دخيلتها بفراغ لا تدري مصدره، ولم تستطع كبح رجفة البرودة، فشعرت بأصابعه على كتفها تتحرك مطمئنة، ثم جذبها اليه، كانت لمسائه رقيقة، أتراه يكن لها بعض

الوجد؟ وابتلعت ريقها، متخلصة من توتر الجيشان العاطفي. هل تستطيع من ناحيتها أن تكن له حبا؟ وتذكرت غريغوري وكيف خذلها وهي مطمئنة اليه بثقة عمياء... كلا، لن تسمح لنفسها بحب رجل مرة أخرى. أقسمت ألا تثق برجل آخر، حتى لا تتعرض لجرح مشاعرها وللخداع.

قالت العمة كريسولا:

"كان بيتا بديعا، ولكنه الآن مهمل، فلست أستطيع العناية به كما اعتدت. ربما من الواجب أن أبعده، ولكني لا أتصور أن أنتقل منه في هذه السن!"

فقال ليون:

"دعيني أبعده لحسابك!"

فسألته:

"أستطيع الحصول على ثمن جيد؟"

فقال:

"جدا، فموقعه مثالي!"

والتفت الى هيلين قائلا:

"يجب أن تأتي مرة أخرى في النهار، فللعمة كريسولا هنا حدائق بديعة، فيها كل أنواع الأشجار والزهور!"

قالت العجوز:

"الحدائق... أجل، ومناظر طبيعية بديعة كذلك!"

وكانت تشير بأصابعها الى النوافذ، فابتسمت هيلين اذ تصورت أن، مصاريعها الخشبية لم تفتح يوما. وقال ليون وهم يعودون الى غرفة الجلوس:

"هل ستفكرين في بيع البيت؟ سأعثر لك على بيت صغير تسهل عليك العناية به!"

فسألته:

"أأكون رخيصة؟"

فضحك قائلا:

"إنك كالجميع، تريدان ثمنا عاليا لبيتك، وتأملين الشراء بشمن رخيص!"

والتفت الى هيلين قائلا:

"هكذا الامر تماما، كلتا جئت، تفكر العمة كريسولا في بيع البيت ثم تغير رأيها دائما!"

فقالت العجوز:

"القطط هي السبب... ماذا أفعل بها؟"

قال ليون:

"كثيراً ما قلت لك ما تفعلين."

فصاحت عمته:

"إنك قاس، بلا قلب، ألا تجدينه كذلك يا هيلين؟"

فاحمر وجهها ولاذت بالصمت، فقالت:

"ألا تردين على العمه كريسولا؟"

قالت عمته:

"لا داعي، فأنا متأكدة أنك تضايق المسكينة بدرجة مخجلة."

ووضعت إحدى القطط على ركبتيها وقالت:

"ما رأيك في بيت ليون؟"

فهتفت متحمسة:

"إنني أحبه، لم أر في حياتي بيتاً مثله."

تجاذبوا الحديث فترة، ثم قال ليون لعمته:

"آرائه لا تحب العودة متأخرة، فيجب أن تذهب، ما رأيك أن

تزورينا؟"

"يسعدني هذا لأنني لم أر الطفلين، ولكن عليك أن تأتي

لتصطحبني فما عدت قادرة على المشي."

اتفقوا على أن يوافيها يوم الأحد التالي، فتناول الغداء،

ثم يقلها ليون في الأصيل ليعيدها إلى بيتها، وقال ليون، وهو

يقود السيارة:

"أعتقد أنني أعرف شخصاً لديه بيت يلائم العمه كريسولا."

إنني مسرور لأنها فكرت أخيراً في بيع ذلك البيت العتيق."

قالت هيلين:

"إنه كبير للغاية بالنسبة إليها، إنها تشغل غرفتين أو ثلاثة،

والفرق الأخرى عارية وباردة... فتصورا."

٧ - زيارة العمه كريسولا

كانت هيلين مستغرقة في عملها حتى أنها لم تظن إلى أن هناك من يراقبها إلى أن سمعت صوت زوجها خلفها، وقد ارتفع على خرير الماء النازل في البركة المجاورة للطاحون، والتفتت محرجة، فإذا به يقول وعيناه مسلطتان باعجاب على اللوحة:

"هل أوشكت على الفراغ؟ ما أسرعك!"

فابتسمت متراجعة تتأمل عملها من مسافة وقالت:

"إنه التشجيع، كيف عرفت أنني هنا؟"

فأجاب:

"أخبرتني آرائه."

قالت:

"عدت مبكراً."

قال:

"أخذ الحر يشتد في المكتب."

لم تكن فترة بعد الظهر شديدة الحرارة، كان هذا اليوم

الثالث على التوالي يعود فيه مبكراً، هل كان يريد أن يكون

معها، وأسعرت تستبعد الفكرة وتولي الرسم كل اهتمامها،

وقال:

"التشجيع؟ كأنك لم تتلقي تشجيعاً من قبل."

ولم تجب، فأدارها لتواجهه، وقال:

"هل هذا هو السبب في أنك لم ترسمي من قبل؟ لم يكن لديك

ما ترينني عندما طلبت رؤية بعض إنتاجك؟"

وأومات برأسها، ولكنها لم تجب، كان غريغوري يستخف

بعملها، ففقدت الثقة بنفسها، ولم نشأ أن نخبر ليون بذلك،

ولكنها قالت تحت الحاحه:

"لم يكن غريغوري يعجب بأسلوبي، لم يكن يظن أن أحداً،

يشترى ما أرسم."

سألها:

"هل كنت تودين بيعه؟"

فثروت ثم قالت:

"ليس للنقود، ولكن من اللطيف أن تفكر في أن هناك من يشتريه. قال فيل إن الفنان لا ينظر إلى المال قدر نظره للأرضاء، والارضاء لا يأتي إلا بتقدير أعمالك". وأخلد للتفكير بزمه، وقال:

"هذا صحيح سيقوم فنانون محليون معرضا لأعمالهم في نيقوسيا، وسأدخل لوحتك فيه". وأبرقت عينها الزرقاوان، لكن البريق خفت بعد لحظة، وقالت والياس يزحف إلى صوتها:

"لن تكون جيدة بدرجة كافية يا ليون".

قال والثقة في صوته، وبريق الزهو في عينيه:

"قلت لك من قبل أن الحكم في هذا لي".

فبادرت قائلة:

"إنه كرم منك أن تشجعني، وإنني أنا أشكرك لذلك".

كان بوسع الكلمات أن تنقل مدى عمق تقديرها؛ كانت دائما تشعر برغبة قوية في الرسم. ولكن غريغوري أقنعها بأنها لا تحبده، مما جعلها تتراجع، وما هي لبدا ثانية في ممارسة هوايتها، لتستمد متعة فيها. ومن أي مديح من زوجها. كان صوته خافتا، حنونا، فطغت عليها السعادة. ما الذي كان يجري؟ تساءلت منذ أيام... هل من الممكن أن تهتم به؟ وما هي تناضل لتمنع نفسها من أن تهتم به، لكن بدون جدوى. إن نكت ليون بوعده وقسوته ليلة خرجت مع روبرت، والتباعد بينهما، كل هذا بهت خلال تلك الأيام القلائل. وأصبح المهم أن ليون ينظر إليها هذه النظرة ويكلمها بهذه النعومة، ويلمسها بهذه الرقة.

قالت وهي تحس بحرارة يديه على ذراعيها:

"يجب أن نعود، فلأبد أن الطفلين عادا من المدرسة". قال:

"أرأيت هناك".

ولناول منها اللوحة، ورفعها. وشعرت هيلين ثانية بالسعادة الفاترة. وما هي إلا دقائق حتى كانا في البيت. كانت فيونا في الحديقة مع الكلب، أما تشيبي فكان لا يزال معاقبا، فقالت هيلين في رجاء:

"أليس لتشبيبي أن يترك غرفته؟ مرت ثلاثة أيام. انه يعرف الآن خطأ، ولا شك أن سيعنى بفيونا في المستقبل".

وأدهشها أن ليون استجاب لرجائها، رغم أنه ألقي على تشبيبي محاضرة عندما جاء إلى الحديقة. وقال ليون وهو يلاحظه أثناء لعبه مع فيونا في الأصيل:

"أظن أنك على صواب، لن يفعل شيئا كهذا مرة أخرى".

ما لبث الطفلان أن انطلقا إلى التلال، وساد صمت لا يتخلله سوى حفيف النخيل. واستلقت هيلين في مقعدها، واخترت نظرة إلى زوجها، كانت عيناه مقمضتين، وبدا مستغرقا في سلام عميق، وإن كانت شفتاه تتحركان برفق من أن لآخر. ترى ماذا كانت أفكاره وأحاسيسه؟ خالت في البداية أن انفعالاته العاطفية غير عميقة، ولكنها أخيرا أخذت ترتاب في ذلك. وراحت تتصور المستقبل وقد أدركت الآن أن قلبها خفق له. لو أنه اهتم بها حقا، لشعرت بسعادة تفوق كل ما عرفت. ولو أن ما سمعته عن طبيعة القبارصة كان صدقا، لكانت في موقف متراجع، لأنه لن يلبث أن يسأمها.

سما ضحكات بعض أطفال في القاية، فقام جبين ليون، وأرهف أذنيه، وقال:

"إنهما مع صبية القرية، ويبدو أنهم في البيت التركي القديم".

ونفض عن مقعده قائلا:

"تعالى نذهب فنشبين ما يجري".

كان قلقه على فيونا صادقا جدا. فتذكرت هيلين ما أكدته بريندا من عدم حبه للأطفال. قد يكون حازما وشديدا، ولكن عدم حبه للأطفال أبعد ما يكون عن الحقيقة.

كانت فيونا وتشبيبي واليكس واندياس، كما توقع وكان تشبيبي أول من رأهما فأقبل مسرعا وهو يقول:

"إننا لا نلعب لعبة السجن، وإنما لعبة الهنود الحمر".

وجرت فيونا إلى عمها، وأخاطت ساقيه بذراعيها، وقالت متطلعة إلى هيلين:

"إنني أحبه كثيرا".

والثفتت هيلين ببطء، فاذا ليون يطل بحنان على الوجه الصغير الحافل بالمشاعر. ثم رفع رأسه، ونظر إلى هيلين وسمعته يتعتم:

"ما ألطف أن أشعر بذراعيك حولي أحيانا".

وللاقت نظراتهما، فاخترت آخر شكوكها. كان يهتم بها، ولن يخذلها.

قال بعد فترة، وهو يفحص هيلين الشقوق الغائرة في
الجبني:
"أظنني سأضطر إلى هدم هذا المكان، فهو غير مأمون وليس
فيه أي جمال".
فسألته بدهشة:
"أهو ملكك؟"
وأوما قائلاً:
"مما ورثته".
وعاد مع الطفلين سيراً على الأقدام إلى البيت.

* * *

كان هيلين وليون يتناولان العشاء، بعدما لاذ الطفلان
بغراشيهما حين عاد ليون إلى موضوع الإجازة، قائلاً:
"إذا ذهبنا إلى بافوس نستطيع زيارة أمي... ولا نستطيع
الاقامة لأن بينها لا يتسع وربما اتفقد تلك الأرض التي أفكر
في شرائها".
وتحمست هيلين للفكرة، فقررا أن يقوما بالرحلة بعد ثلاثة
أسابيع حين يكون الطفلان في عطلة مدرسية".
فقالت هيلين:
"يجب أن أشتري بعض الأشياء الجديدة للطفلين، في زيارتي
التالية لترودي".
في تلك الأثناء زارتها العمّة كريسولا، والاتذت هيلين -
استعداداً للمناسبة - الثوب الذي اشتراه ليون. واذ أقيلت من
غرفة النوم إلى غرفة الجلوس، شعرت بخجل لم تدر مصدره
عندما لاحظت تغير قسماته... فقد حرق فيها بأعجاب صامت
قبل أن يقول:
"زوجتي الجميلة! هل أجرؤ على ضم حساء كهذه؟"
فتقدمت منه، وأحاطته، وبعد عشر دقائق قال:
"يجب أن أذهب وأحضر العمّة كريسولا، لن أعيب طويلاً".
وما أن وصل مع السيدة العجوز، حتى وصلت سيارة أخرى
هيبت منها أسمينا وفاسيليوس. ورمى ليون زوجته متسائلاً،
وهو يحييهما قائلاً:

هل تبقىان معنا للغداء؟"
قالت أسمينا وهي تبسّم لفيونا إذ أقيلت عليها:
"كلا يا ليون، إنما جئنا في نزهة قصيرة".
فقالت هيلين:
"يجب أن تبقىا، فالعمّة كريسولا هنا".
فهمت أسمينا:
"هنا؟ هل استطعتما أن تخرجاها من بيتها؟ إنها ترفض
الدعوات دائماً".
ونظرت إلى زوجها وقد استند إلى السيارة يداعب مسيخته.
وعيست هيلين على الرغم منها، فلاحظ زوجها ذلك، ولمعت
عيناه بابتسامة.
كان الطفلان يخجلان من العمّة كريسولا - في البداية -
والواقع أنهما كانا يخشاهما، إذ كانت مجللة بالسواد من
رأسها حتى قدمها وكان وجهها متغصناً، ويداها نخيلتين
معروقتين. لم تتزوج أبداً، فتوقعت هيلين أن تضيق
بالطفلين، ولكن ما حدث كان عكس ذلك، وبدأ تشيبي وفيونا
بشران معها، وهي تستمتع بذلك.
بعد الغداء، قدمت القهوة في غرفة الجلوس. وكان ليون قد
أطلق مصاريع النوافذ، فنظرت إليه هيلين بدهشة، وقالت:
"ألا نترك المصاريع مفتوحة؟ من غير المعقول أن نجلس في
نور صناعي بدون سبب".
فقال:
"لندعها مغلقة حالياً يا حبيبتي، حتى تشعر العمّة كريسولا
بأنها في بيتها".
وتدافع الدم إلى محياها لنداء الاعزاز الذي لم تتعوده منه.

* * *

لاحظت ترودي التغير الذي طرأ على هيلين حين زارها،
فقالت:
"ماذا جرى لك؟"
وأردفت مداعبة، وهي تضحك:

"إنني لا أكاد أعرفك، كيف حدث هذا، بعد كل إصرارك على ألا تقمي في الحب؟"

فضحكتا معا، وقالت هيلين، وهما في المطبخ لتناول وجبة خفيفة:

"طلب ليون أن ادعوكما لزيارتنا. نريد أن تأتيا إلى العشاء، ولكننا سنرحل بعد أيام، فلنحدد الموعد بعد عودتنا."

سألتهما ترودي:

"أهو شهر عسل؟"

فسرحت هيلين بصرها على الطريق وهي تتذكر الأيام التي قضتها مع ليون في فاماغوستا، ثم قالت:

"كلا، سيصبحنا الطغلات."

فوجهت ترودي وقالت:

"هل أنتما مقيدان بالطقلين؟"

فبادرت هيلين قائلة:

"إنني أحبهما... كلانا نحبهما. حرما الكثير، ولكننا نعوضهما الآن."

ذهبا بعد شراء ما أرادت هيلين إلى مقهاهما المفضل. وبرغم النظرات المتطفلة المألوفة، تناولتا المرطبات، وكانت الساعة لم تتجاوز الرابعة عندما غادرتا المقهى. فقررت هيلين ألا تعود إلى مسكن ترودي انتظارا لثيو، وأن تذهب إلى مكتب زوجها. ومرت في طريقهما إلى موقف الحافلات بمتاجر الهدايا، وعندما تأملت هيلين إحدى نوافذها، هتفت في دهشة:

"أحدي لوحات روبرت. ألا تريتها جيدة؟"

فقالت ترودي:

"بلى... نسيت أن أسألك، كيف قوبلت لوحتك؟"

واحمر وجه هيلين وهي تخبرها أنها قوبلت باسئحسان، وطلب منها أن ترسم منظرين على جدارين في إحدى الفيلات الجديدة التي أقامها أحد الانكليز وأضفت:

"وهو معجب أيضا بإنتاج روبرت، ولذلك سوف يزين جدران غرفة الطعام."

قالت ترودي:

"في البيت ذاته؟"

فاومأت هيلين برأسها. وعقبت صديقتها:

"كيف تلقى ليون الفكرة؟"

قالت:

"إنه مسرور من أجلي، فهو يدرك أنني أستمتع بالرسم."

وعادت ترودي تسألها:

"أين لوحتك الآن؟"

قالت وفي صوتها وعينيها سرور، اجتذب الابتسام إلى شفطي صديقتها:

"أخذها ليون إلى مكتبه وأتوقع أن يكون قد علقها."

فعقبت ترودي:

"لا بد أنه يحبك، إذ يريد لوحتك أمامه طيلة النهار."

كانت المسافة إلى المكتب قصيرة. عندما دخلت هيلين، نظر زوجها إلى الساعة، وقال:

"هل حدث شيء؟ كان ثيو يتهيأ للذهاب إليك بعد حوالي نصف ساعة."

فقالت وهي تضع الرزم على مقعد، وتسنقر في آخر:

"رأيت أن آتي بعدما قرعنا من التسوق."

فابتسم وهو يضغط الجرس على مكتبه:

"سأطلب لك شرايا، إذ تلوحين متأثرة بالحر. لماذا حملت كل هذه الرزم؟"

قالت وهي تتلفت حولها:

"إنها ليست ثقيلة."

لم يعلق ليون لوحته، ترى أين هي؟ وجاء ثيو بالقهوة لليون، وشراب البرتقال لهيلين، فقال ليون وهو يلقي نظرة على الأوراق التي أمامه:

"أكاد أنتهي من عملي الآن..."

هل تذكر له الرسم؟ كلا، شعرت أن هذا ليس من الصواب. وقالت بدلا من ذلك:

"لا داعي لأن تترك عملك، فلست أمانع في الانتظار."

ولكنه قال، وهو يجمع الرزم:

"كلا يا عزيزتي، سننصرف."

أخذ الطفلان يثرثران بانفعال فرح تأثرت له هيلين، لأنها لم تعرف هذا في حياتها. ورغم أن الاستعداد للرحلة أدى إلى عمل إضافي، فذلك كان مصدرا للسرور. وقالت فيونا وهي لا تكاد تقاوم اللهفة:

"يا ليت السفر يوم الجمعة فلست أطيع صبرا."

فأجاب عمها بهدوء:

"لا بد من الانتظار، فقد بقي للمدرسة يومان".
قالت:

"كم يوما سنغيب؟"
قال:

"حوالي أسبوع، إذ أحسنتما السلوك".
كانت هيلين تبتسم وعيناها تفيضان حنانا وهما تتأملان وجه فيونا وقال ليون، في وقت لاحق:
"إنك تهتمين بهما كثيرا يا هيلين".
فقالت:

"إنني أحبهما، ولكم يسرني أنني بقيت يا ليون".
فتساءل وهو يرتقب الرد متوترا:
"ألماذا فقط؟"

ابتسمت بخنان، وقالت:

"كلا يا ليون، لسبب آخر، أهم".

زارت هيلين مصففة الشعر يوم الخميس، فقالت ايلينو وهي تكوي لها شعرها:

"سمعت أنك تجيدين الرسم، اخذي صديقات خالتي تقفني
أحدى لوحاتك... وتقول خالتي إنها جميلة".
ودهمت هيلين، وقالت:

"أحدى لوحاتي؟ لا بد أن هناك خطأ ما".

كانت منذ قدومها إلى الجزيرة رسمت لوحة واحدة. وهي
عند زوجها. ولكن ايليني تطلعت في حيرة وقالت:

"كلا، إنها رسم للطاحونة القديمة التي في لايتوس".

وخفق قلب هيلين اضطرابا، وأخذ الدم ينحسر من وجهها.
ألم يكن ليون يشجعها للمضي في الرسم؟ وهل يمكن أن يكون
قد قرط في اللوحة؟ وسألت ايليني:

"ومن تلك التي لديها لوحة لي؟"

فقالت:

"إنها تقيم في نيقوسيا. بولا مكسول. كانت زميلة خالتي
في المدرسة".

توقفت ايليني عن الكلام. وهتفت:

"هل أنت بخير يا سيده بيترو؟ هل أحضر لك بعض الماء؟"

فهزت هيلين رأسها في صمت، وقد غاض الدم تماما من
وجهها، وأحست كأن قلبها محاط بثلج. إذن أعطى ليون
لوحته لتلك المرأة. لا بد أنه مستمر في لقاءه بها.

ولكن، متى وقد أصبح لا يخرج في المساء منذ أسابيع؟ لماذا
صدقته أنه بدأ يحفل بها. لماذا سمحت لنفسها بأن تحفل به؟
لم تدرك هيلين إطلاقا كيف تماسكت حتى تم تخفيف شعرها،
همت بالنهوض عدة مرات، لولا قوة إرادتها. ومع ذلك لم
تشعر برغبة في العودة لبيتها ورؤية زوجها. سمحت لنفسها
بأن تضعف، وأن تلين لزوجها بعدما أقسمت ألا تجازف بأن
تحب مرة أخرى، وأن تعتقد أنه يحفل بها، وأنه أحبها منذ
زواجهما، وإن لم يكن لزوجها عن حب.

وهاهي ذي تعرف أنه لم يكن ثمة حب، وكل ما أراد أن
تكون محظية له، لقد أذى برودها كبرياءه، فصمم على أن
يحظى منها، بمبادلة مهما يكن الأسلوب الذي يضطر
لاستخدامه. أحست هيلين أنها تكرهه، لكنها كانت أكثر
كرها لنفسها، لأنها استسلمت إليه بسهولة. وتذكرت كيف
كاد يتوسل استجداء لعناقها، وكيف جعلها تشعر بالذنب.
هكذا كسبها إليه، واكتسب حبها. ولكنها لم تعد تحبه. كلا،
إنها تكرهه. وستكرهه بقية حياتها.

جرت قدميها جرا إلى البيت، لم تكن ترغب في العودة،
لكن إلى أين تذهب؟ والطفلان؟ فقد الأم والأب، وفي حاجة
إليها، وتبادرت الدموع إلى عينيها فكبحتها. يجب ألا يعلم
ليون أن مشاعرها جرحت.

كان أمام المدخل ينظف السيارة استعدادا لرحلة الغد، حين
وصلت، فهتف:

"هل حدث شيء يا عزيزتي؟ هيلين، حبيبتي ماذا حدث؟"

يا للرياء! كان قلبها كحجر أحيط بالثلج، وأهابت بها
عزيرتها أن ترمي في وجهه بكل ما عرفت، لكن هذا كان
كفيلا بالفاء الرحلة. وما ذنب الطفلين؟ فقالت:

"ليس بي شيء يا ليون".

ودخلت البيت دون أن تزيد، فتبعتها قائلا:

"بل هناك شيء يا حبيبتي، هل أنت مريضة؟"

كان لا بد أن تتظاهر حتى نهاية الرحلة، فقالت:

"إن بي صداعا، سرعان ما سأتعافى".

قال بخزم حز في أعصابها:

"يجب أن تنامي، هيا يا عزيزتي، سأعاونك".

ورفعها إلى السرير، وانتزع حذاءها، وجذب الغطاء فوقها،
ثم أغلق مصاريع النافذة وقال:

شقاق، هذا ما رأت على تفاديه اكراما للطفلين.

★ ★ ★

قضوا اليوم الأول مع أم ليون، ثم انتقلوا بعد العصر الى فندق في كتيما، عاصمة منطقة بافوس الحديثة، وكان المساء جميلا، صافي السماء، والهلال يحتر عبابها فوق البحر. وخلقهم سفوح جبال ترودوس. كان البحر هادئا، وسارا على الشاطئ في صمت - بعدما أوى الطفلان الى الفراش - أخذت هيلين تسائل نفسها: ترى هل أحسن ليون بتفورها؟ فهي برغم محاولاتها لم تكن تقوى على النظر اليه، أو مخاطبته بتلك الرقة التي أصبحت أخيرا طبيعة لها. اذا فطن لتغير فائه لم يقل شيئا، ولعله حسبها لا تزال متأثرة بصداق الأمس.

قطع الصمت أخيرا، قائلا:

"ما أهدأ البحر. ستقضي الصباح على رمال الشاطئ، وفي السباحة. وفي الأصيل، تنطلق بالسيارة الى غابة بافوس." فقالت:

"هل هي جولة ممتعة للطفلين؟"

فضغط يدها برفق قائلا:

"ستروق لك. ليست الجولة للطفلين فحسب كما تعرفين. وتطلعت اليه تحاول كشف أساريه. لكن الظلام لم يمكنها. كيف يستطيع تمثيل دور كهذا؟ وفجأة عادت اليها ذكرى غريغوري. ظل عاما كاملا يخدعها ببراعة، بدون أن تساورها لحظة شك. ظل سلوكه كما عهده، لا كلمات حنان، ولا قبوسة، ولا مشاجرات. وما هو ذا ليون يحدق من الخداع، حتى تعتذر أن تصدق أنه كان يخدعها.

كانت الرحلة للطفلين مغامرة عظيمة، رغم أنها كانت لهيلين محنة مرهقة. كان الطفلان بحاجة الى تغيير رتبة حياتهما، ولو أنها خببت رجاءهما لما صفحت عن نفسها أبدا، لكن شقاءها كان يفوق أحيانا ما تحتل. فلم تستمتع بلحظة واحدة. وقضوا الصباح الأخير على الرمال، عند خليج صغير جميل، في غرب بافوس. كان تشيبيسي يستطيع

حاولي أن تنامي يا حبيبتي.

وما أن خلت بنفسها، حتى عجزت عن كبح دموعها، كيف فسر ليون بها هذا؟ لكم أظري رسمها، وألح في عرضه. كيف بدا صادقا حين قال أنه يريد في مكتبه! فليستمتع بفوزه فترة، ثم يفيق، وليذهب اذ ذاك الى بولا مكسويل، لأن هيلين لن تجعله يقربها ثانية!

كان ليون يجلس بجوار الفراش حين استيقظت، فسألته أن يفتح حصاريع النافذة، فقال:

"لقد هبط الظلام يا عزيزتي."

وأضاء النور الكهربائي وهو يضيف:

"أتشعرين بتحسن؟"

ما أبرعه في صبغ صوته بالاهتمام والقلق! فقالت:

"إنني بخير... كان مجرد صداع."

فقال:

هل أنت متأكدة؟

أجابت:

"كل التأكيد، سأنهض الآن!"

لا شك أن الصدمة جعلتها شاحبة، وصرفتها عن العشاء، وكان قلق ليون واضحا، فامتلات نفسها مرارة وغيظا، لو أن شعوره كان صادقا لزحفت الى ذراعيه، والتمست عزاء على صدره!

★ ★ ★

استيقظ الطفلان في السادسة صباحا وأقبل يركضان، لكن ليون لم يكن راضيا، وسألها:

"هل تشعريين بأنك قادرة على الرحلة؟ إذا لم تكوني قادرة فلن نقوم بها."

وضمها اليه بالرقة المألوفة. كيف يكون بهذا الرياء؟ هل هناك تفسير محتمل؟ حتى إذا كان يحب بولا، ما الذي يضطره لاعطائها لوحة زوجته؟ وأحست هيلين بيده تربت وجنتها برفق وحنان. هل تسأله عن اللوحة؟ هل يمكن إجلاء هذا الغموض بايضاح بسيط؟ لو كان مذنبا، فسيبدب بينهما

السباحة، وليون يعلم فيونا في كل فرصة. ولوحت الشمس
بشرة الطفلين وتألقت بالصحة.

قالت فيونا وهي تتكىء على عمها في توسل:
"ليتنا لا نرحل. ألا نستطيع البقاء يوما آخر؟"
فقال:

"يؤسفني ألا نستطيع يا فيونا، ولكننا سنأتي ثانية. ربما
بعد بضعة أسابيع."

ونظر إلى هيلين يسألها:

"ما رأيك؟ أتودين هذا؟"

قالت:

"نعم."

ونكست رأسها لتخفي عيوسها... أبدأ، لن نستطيع
احتفال عذاب كهذا مرة أخرى. فضلا عن أنها اعتزمت أن
تخبر ليون - عند العودة - بما علمت.

قال:

"لا يبدو أنك حازمة يا هيلين. ألم تستمتعي؟"

لاحظت أن عبارات الأطراء اختفت في اليومين الأخيرين،
وأبذرها عودة الخشونة إلى فمه وعينييه بأنه أحس بأمر ما.
ولكنها قالت كاذبة عندما لمحت القلق في عيني فيونا:

"بل استمتعت... أعتقد أننا جميعا نعمنا بوقت رائع."

ولم يفتن الطفلان إلى شيء في لهجتها، لكن نظرات ليون
ازدادت حدة، وقال تشيبي:

"نعمنا بوقت ممتع. هل تمدنا بالحضور مرة أخرى يا عم
ليون؟"

وقال ليون:

"نعم أعد."

لم تفارق عيناه زوجته. كأنما كان يخبرها بأنهم سيعودون
في أجازة أخرى، شاعت أو لم تشأ. واشتد خفقان قلبها.
كانت قد أطمأنت إلى أن الأمور تسير على هواها. وأن
بوسعها أن تملئ شروطها بعد ما اكتشفت تفاني زوجها. هل
يقدر لهما أن يعودا إلى الوضع الذي كان قائما قبل أن تتعود
الاهتمام بليون؟ كان فمه منطبقا في حزم وعيناه ترسلان ذلك
الوميض البارد الذي كانت ترتجف له في أكثر من مناسبة.

هل خالجهما الأمل حقا؟ ولو - للحظة واحدة - في أن تملئ
أرادتها على هذا الأجنبي الأسمر الصارم الذي كان زوجها

لها؟ كلا، بل تقبلت الحقيقة بقلب مثقل، واعتزمت أن تروض
نفسها على تسلط ليون وتسير الحياة كما كانت من قبل تماما.

٨ - نعم ... كنت مع روبرت!

رغم أن هيلين اعتزمت ابلاغ ليون بما اكتشفته بصدد الرسم، رأت أن ترجى ذلك باستمرار. وكان السبب - كما اعترفت - هو الجبن، فقد خشيت شجارا مع زوجها، إذ أعطاها مثلا لغضبه، وللقسوة الناشئة عنه، ولكن أحجامها خلق موقفا من نوع آخر، بطبيعة الامر، إذ لم يجد ليون سببا للتغير التام في مسلكها نحوه. واحتلها لفترة بسيطة، وتولاها شعور غريب بأن الكبرياء هي التي تمنعه أن يسألها عن سبب التغير على أنه في آخر الامر عالج الموضوع. ومع أنه - في بادىء الامر - سيطر على طباعه، إلا أن الخشونة لم تكن خفية. وكانا قد فرغا من غزائهما، والطفلان يقضيان بضعة أيام لدى فاسيليوس وأسمينا، في عطلتها الصيفية الطويلة.

كانت تقرأ، فأخذ الكتاب منها بدون انذار، وطوح به الى المنضدة وقال:

"أريد ايضا يا هيلين، أظن هذا حقي؟"

قالت وهي لا تدري لماذا ترتجف، فما كان يملك أن يؤذيها:

"إيضاح؟ لست أدري ما تعني يا ليون."

قال وهو واقف وعيناه نغيمان بغضب متزايد، وإن ظل مسيطرا على طبيعته:

"أتكرهين أن تغيرا طرا عليك؟ هل تنكرين إنك لم تعودى راغبة في؟"

فرقت ذقنها قائلة:

"راغبة! ما زغيت فيك أبدا."

"لا تكذبي. كنا سعيدين لفترة قصيرة، فما الذي حدث؟ هذا ما أطلب أن أعرفه. التغيرات التي من هذا القبيل لا تحدث بدون سبب قوي. أخبريني بالسبب، نستطيع أن نناقش الامر، ونبت في الخلافات التي بيننا."

لم تثر كلماته سوى مرارة بدت في قوس شفيتها، وازدراء بدأت تشعر به نحوه. يا للهدوء الذي طلب به ايضا حات

وهو على علاقة مشينة بخبيبته السابقة. ثمنت أن تخبره، وتجاوزف بالتعرض للعواقب، ولكنها كبحت أفكارها فجأة. كانت قد مكنته من أن يرى حبا، وفرح سرا بانتصاره. فعندما أرغمها على حبه حقق رغبته في أن تبادل مشاعره. ولو صارحته الآن بالحقيقة، لاعتقد طبعاً بأنها لا تزال تحبه، واستنتج بأن التغير الذي أصابها نجم عن جرح وخيبة، وما كان هذا ما تبغيه ... وشرعت تقول:

"ما زلت لا أفهمك. عقد زواجنا بدون حب من الطرفين. ومضيفا على نحو محتمل يا ليون، ولا أستطيع أن أرى لك ما تشكو منه."

ازدادت نظرتة حدة كالقولاذ فقال:

"لم تجيبي عن سؤالى. ما الذي أحدث التغير المفاجيء؟ فسألته وفي صوتها هدوء وإن كان قلبها يدق بقوة:

"أي تغيير؟"

فصاح وراحناه تنقيضان وتلبسطان:

"لا تراوغيني! أجيبني وإلا هزرتك حتى تجيبي، أحببتني لفترة وجيزة."

وبرغم خوفها، قالت:

"أحببتك؟ كيف توصلت لهذا؟ لأنني استجبت لك؟"

كانت تود أن تؤلمه، لا لما فعله بها فحسب، وإنما لما فعله غريغورى كذلك. واستأنفت:

"من المؤكد، أنك لا تعلق على هذا أية أهمية."

أخذ الغضب المعتم يزحف على محياه، وكان انطباق فهمه وقسوة نظراته تنذرهما ولكنها عميت عن الخطر لحظة لتجرح كبرياءه، وعادت تقول:

"أما التغير، فالمرء لا يستطيع الاستمرار في التمثيل، كما أن المرء لا يلبث أن يسأم."

وسكتت، وساد صمت رهيب. ونهضت مترنحة وحاولت الوصول الى الباب، ولكن قبضة ليون اشتدت على رسغها، وبدفعة أعادها لمكانها والألم يسري الى كتفها.

"إذن فهكذا كان الامر؟ كان تمثيلا. أهذا ما تقولين؟"

قالت:

"إنك تؤلمني يا ليون."

ولكنه بدا للحظة عاجزا عن السيطرة على نفسه، وراح يهزها بغير رحمة، وهو يقول:

"كان تمثيلاً؟ ستندمين على هذا ما حبيت. ما من امرأة لخدعني وتغلت من عقابي".

وغاض الدم من وجه هيلين، وراح جسمها يرتجف. ولكن اليقين بأنها حققت غايتها يزغ خلال حمام الخوف. كان يعتقد بحق أنه مخدوع، وأنها كانت ضجرة خلال معاشرته. أية لطمة لكبريائه! ليصب عليها نقيته. فانتقامها هذا يستحق ما تعاني - وتطلعت بنظرة خاطفة - كانت شفتاه منفرجتين كوحش يزمرجر، وتوقعت أن تتعرض لنفسوته البدائية ثانية، ولكنه - لذهولها وارتياحها - دفعها عنه، وغادر الغرفة - وبعد لحظات، سمعت صوت باب السيارة يفلق وضجيج المحرك يتباعد.

جلست على مقعد، واسندت وجهها الى يديها وهي ترتجف وقلبها يخفق بشدة حتى لتكاد تسمع خفقاته. كان البيت هادئاً. وفجأة شعرت برغبة ملحة في أن تغادره. لكن، الى أين تذهب؟ ولأول مرة فطنت الى أنها بعيدة عن أصدقائها. ما كان لها أحد هنا سوى أقارب زوجها، وترودي. لكنها ما كانت تستطيع الذهاب الى ترودي لأنها ستشعر في الحال بأن في الأمر شيئاً.

استغرق روبرت فترة قبل أن يجيب نداءها الهاتفي - معتذراً بأنه في الرسم الذي أقامه لنفسه فوق سقف جنزله. وقال:

"كنت أعتزم الاتصال بك، فان السيد كرولي - ذلك الانكليزي - أرسل لي مفتاحاً لبيته - وسألني أن أتصل بك لنشرع فوراً في الرسم، إذ يأمل في أن ينتقل الى البيت مع الخريف". وأمسك لحظة ثم أردف:

"ما أحسبك خالية الآن، فاحضر اليك".

قالت:

"بل تعال يا روبرت، فاني أود أن أراك وأناقش ما علينا عمله للسيد كرولي. أقول أن بوسعك الحضور فوراً".

"نعم. لكن زوجك؟ لدي فكرة بأنه لا يحبني كثيراً". وخيل اليها أنها ترى الابتسامة على وجه روبرت العريض، الطيب - فقالت بهدوء:

"ليون في الخارج، ولا أتوقع عودته حتى أواخر الليل". وسادت لحظة صمت، ثم قال:

"إذن سأنتي بعد نصف ساعة، وبأحضر المفتاح

معي، ونستطيع الانطلاق لثري ما يمكن عمله في القليلة". وتردد قليلاً، ثم أردف:

"لعلنا نستطيع الذهاب لمكان نتناول فيه الشاي".

وصل روبرت في الوقت الذي حددته بعد نصف ساعة تماماً. وبينما كانت هيلين في المطبخ لتحضر بعض المرطبات، سمعت رنين الهاتف، وخفت لتجيبه، فادهمشها أن ترى روبرت ممسكاً بالساعة. وزادها دهمشة أنه احتفظ بها بدلاً من أن يسلمها اليها. وكان صوت المتكلمة مرتفعاً، فسمعت هيلين كل شيء بوضوح: "... وسنذهب في سيارتك يا ليون...". أحضر بعض الفطائر أيضاً، وقنينة شراب. فسكنون في العراء أحياناً، وأنت تعرف مدى صعوبة الحصول على شيء هناك...". وانقطع الصوت، فغطى روبرت الساعة براحة يده، وهمس وهو يرمق هيلين وعلى وجهه أعرب تعبير:

"غرام قديم لزوجك... بولا مكسويل... تظنني ليون، فماذا أهمل؟"

تناولت هيلين الساعة وهي متماسكة برغم شحوبها، وقالت بأدب:

"أنا السيدة بيترو. يؤسفني أن زوجي غير موجود".

وانتظرت، وهي تعجب هل انقطع الاتصال. ولكن بولا تكلمت أخيراً بصوت أهدأ:

"أقولين أن ليون غير موجود؟ هل لديك فكرة عن موعد عودته؟"

فأجابت هيلين وقد خفق قلبها، عندما تذكرت أن ليون استغرق وقتاً كافياً لبلوغه نيقوسيا، إذا كانت مقصده:

"كلا، للأسف. هل أنقل اليه رسالة ما؟"

"كلا، شكراً. سأتصل به... آه، إنه هنا الآن".

وبعد صمت وجيز قالت بولا:

"من الرجل الذي أجابني يا سيدة بيترو؟"

كان الصوت خافتاً وناعماً، فشعرت هيلين بخوف واستنكار. وقالت:

"هذا أمر يعنيني يا آنسة مكسويل".

وأناهما الرد متلكناً:

"فليكن... لكن لا تخافي فلن أقول كلمة لزوجك!".

قال روبرت معتذراً:

"رفعت الساعة بحركة تلقائية. حاولت أن أقول أنني

ليست ليون، لكنها مضت في الكلام...

وأضاف وقد تسلمت لصوته نبرة غريبة:

"بمجرد أن ذكرت اسمها تذكرت بولا مكسويل، التي كانت تصاحبه كثيرا قبل أن يتزوجك."

خرجت كلماتها بصعوبة، إذ جف حلقها:

"أيعرف كثيرون بأمرها؟"

قال متريدا:

"كانا صديقين حميمين لدرجة بالغة."

وتبعها عندما عادت إلى المطبخ، وقال:

"ليس هذا من شأني، لكن ما الذي يجري بحق السماء؟ إذا كان راغبا فيها، فلماذا تزوجك؟"

وتماثلت نفسها، وأخبرته عما دعاها وليون للزواج، فأطلق

صغيرا يعرب عن دهشة، وهو يحدق فيها، لا يصدق ما يسمع.

قال وهو يتناول الكوب التي قدمتها إليه، وجذب لها مقعدا

ليجلسا في الشرفة:

"إنك هادئة جدا... لا حب من الطرفين؟"

قالت:

"هذا صحيح... لا حب من الطرفين."

وأرسلت نظرها إلى البحر، فإذا به هاديء الأمواج. وحولت

بصرها إلى الجبال، فإذا دروب صخرية وعرة تتخللها، إذا

سلكتها وجدت نفسك في العراء... ترى أين هما الآن؟ هما

في الطريق إلى مكان اعتادا التردد إليه؟ قد لا يكون في

الجبال، فالجزيرة مليئة بالأماكن المنعزلة... الشعاعية.

قال وهو يقف خارج غرفة النوم ريثما تنهيا للخروج:

"ما رأيك في قضاء مساء طويل، وسهرة؟ نستطيع أن نتأمل

البيت ونتبين ما ينبغي أن نفعله، ثم نذهب للسباحة،

وننتهي إلى تناول العشاء في مكان ما؟"

ارتدت الثوب الذي ابتاعه لها ليون، فانتطلقت من فم

روبرت تعابير الإعجاب وهو يتأملها، وكان تعليق الوحيد:

"بعض الرجال حمقى!"

xxxx

كان البيت، فيلا، بيضاء جميلة، على جانب التل فوق

كيريونيا. وبدا واضحا أنه لم يكن الحال قيمة في تصميمها.

وهتفت هيلين وقد نسبت شقاءها وراحت تتأمل ما حولها:

"ستكون جميلة إذا ما اكتملت. أين نضع رسومنا؟"

وكانت الارشادات لدى روبرت. فقال وهما يسيران ليتبينتا

الأماكن:

"سوف نسعد بهذا العمل. نستطيع أن نؤديه معا. أوافيك

بالسيارة صباحا لأقلك ذهابا وإيابا."

وتساءلت في نفسها عما يقوله ليون في تدبير كهذا؟ من

المؤكد أنه لن يقره، ولكن إقراره لم يعد يهمها.

"ستكون اللوحات الزيتية على الجدران متعة، إنني متلهف

للبدء، متى تستطيعين البدء يا هيلين؟"

"في أي وقت. وإن كنت لا أدري كيف أذهب عندما يكون

الطفلان في البيت. إذا عادا إلى المدرسة، بوسعي الحضور كل

صباح، إلا في العطلات الأسبوعية طبعاً."

"إذن، نستطيع البدء فوراً."

واتفقا، قال روبرت:

"هناك مقهى صغير يديع على السفح، على مقربة من هنا،

نستطيع تناول وجباتنا فيه. ستكون تسليية مريحة يا هيلين."

هل ستشعر بالمرح مرة أخرى؟ عجلها الآن سيكون مجرد

شغل يساعدها على نسيان الشقاء الذي في قلبها.

ذهبت مع روبرت إلى جزء منعزل من الشاطئ، وبعد ستة

أميال عن كيريونيا، فقصيا ساعتين في الماء وتحت الشمس

على الرمال الذهبية. غير أن أفكارها طيلة الوقت كانت مع

ليون وبولا. ماذا كانا يفعلان؟ وأعاد الماء والرمال إلى ذهنها

ذكرى مناسبة أخرى، حين كانت وليون على رمال قاماغوستا

وأمسك بيدها بحنان، وراحا يمشيان على خافة الماء. لم

تدرك عندئذ أنها أوشكت أن تحبه، ومع ذلك استمتعت

بصحبتة، وانثقت في أعماقها بداية سعادة غامرة. ولكنها

ولت!

قال روبرت بعد نصف ساعة:

"ما رأيك في بعض الشاي، وجولة في الريف، ثم العشاء؟"

وقال بعد أن بدلا ثيابهما في السيارة، كل بدوره - ونسقت

شعرها:

"هل نتناول الشاي في الميناء، أم تفضلين مكانا أكثر عزلة؟"

وفضلت مكانا أكثر عزلة، فكانت الميناء تعج بالناس بعد ظهر أيام الأحد. ثم انطلقا في السيارة - بعد الشاي - خلال التلال حتى إذا هبط الظلام، اقترح روبرت مطعما معروفا. وترددت هيلين فبادرها قائلاً:

"من الممكن أن يشاهدنا أحد، أينما ذهبنا. ما رأيك في المجيء الى مسكني، ونعد وجبة لنا؟"

ترددت هيلين ثانية، لكن العودة الى منزلها معناه أن تقضي الأمسية وحيدة. لذلك ذهبوا الى مسكنه. وقال روبرت:

"إنه صغير جداً، ولكني أرتاح اليه. لم أكن أملك مالا كافياً، ولا أزال - في الواقع - أجري فيه التجديدات. على أنه مريح، كما أن لدي ثلاثة."

صاحت هيلين إذ دخل البيت:

"أراك أيدعت فيه!"

كانت في المطبخ، ووراء قنطرة بيضاء مرتفعة، كانت غرفة الطعام الصغيرة - في جزء أشبه بفجوة في الجدار - وأردفت:

"إنني أعجب بهذه القنطرة والسقف. لم أشاهد من قبل أحد هذه السقوف التركية المصنوعة من الحصير."

فقال:

"ليس حصيراً، إنه غاب مجدول وليست الاعمدة سوى جذوع شجر جردت من قشورها. وهنا الحمام، وهذه دورة مياه صغيرة."

وتبعته هيلين وهي تتسائل:

"أين غرفة الجلوس، إذ لم تعد هناك أبواب أخرى."

وأخيراً قال:

"الآن الى الطابق الأعلى."

وصعدا درجات سلم حلزوني ضيق، فإذا هناك غرفة واحدة، أثنت كمخدع وغرفة جلوس، وضحك روبرت وهي تتأمل المكان وقال:

"أشعر كأنني حافظت على حبتي أنثى عتيق. إن عمر هذا البيت مئات السنين."

قال يدعوها:

"تعالى اريك حرسجي، يجب أن تجتازي هذه النافذة، وتصعدي سلماً متنقلاً لكنه مأمون."

كان المنظر مثيراً للاعجاب. وهتفت وهي تطل خلال

النافذ الواسعة المنخفضة على الجبال المحيطة والبحر:

"لا عجب في أنك تستطيع الرسم هنا فالمكان هادئ جداً."

هبطا فقادها روبرت الى الثلاثة وقال:

"اختاري ما تريدين، ريثما أعد المائدة."

كانت هناك عدة أنواع من اللحم وكثير من الخضار الطازجة. وسألته:

"هل سنضطر لظهو شيء ما؟"

فقال:

"كلا، لا ظهو وانت في هذا الثوب البديع. لنكتف بلحوم باردة وسلطة."

استمتعت هيلين بالطعام، لدهشتها. كان روبرت أنيساً

طيباً، كما أعطاه انطباعاً بأنه عميق التفكير. وأعجبها أنه

لم يذكر ليون مرة أخرى، ولا الظروف الغريبة لزواجها منه.

فاستطاعت أن تحتفظ بحياتها الشخصية على حدة. ومع أن

خروجها معه كان تصرفاً يتسم بالتحدي، فلم تكن راعية في

تحمل مشاجرة أخرى مع ليون، بعد الذي جرى بعد الظهر.

لذلك طلبت من روبرت في الساعة التاسعة أن

فارقها روبرت عند باب الحديقة. وكانت الفيلا غارقة في

ظلام دامس، فارتاحت لذلك. وأوت الى فراشها مباشرة. في

الصباح التالي، خرج ليون مبكراً، فتأهبت هيلين لانتظار

روبرت، بعدما ساعدت آرائيه في الاعمال المنزلية.

أقبل روبرت في الساعة التاسعة. وقاد السيارة خلال

الطريق الطويلة، فوصلا الى العاصمة بعد العاشرة واستقروا

أكثر مما توقعوا في شراء لوازمهما للرسم، فاقترح روبرت أن

يتناولوا الغذاء في نيقوسيا، وذهبا الى الهيلتون. وكانت أول

من رأت هناك، بولا مكسويل، جالسة الى مائدة لشخصين، في

أحد الأركان. وشعرت هيلين أن قلبها يقفز من مكانه.

وتذكرت المناسبة التي رأت فيها زوجها وبولا هناك لتناول

الغذاء.

قالت متلعثمّة وقد أدركت أن بولا رأتها وأخذت تتفرس في جرافقها باهتمام:

"هل تمنع في الذهاب لمكان آخر يا روبرت؟ إن بولا هنا مع ... زوجي؟"

فقطب جبينه وقال:

"بولا وليون؟ هنا؟ ما أدراك بأنها مع ليون؟ انني لا أرى أثرا له. وإذا كان له أن يتناول الغذاء معها، فلي أن أتأوله معه."

وكاد يدفعها دفعا إلى المقعد، فلم تبد احتياجا آخر، إذ كان يوسعها - برغم المسافة بينها وبين بولا - أن ترى ابتسامة على وجهها فشعرت بأنها تعجب من ارتباكها. وظلت تراقب المائدة الأخرى بقلب خافق، انتظارا لظهور ليون. ولكن الرجل الذي وافى بولا كان أكبر سنا من ليون، وجلس في مواجهتها، وجذب بعض أوراق من جيبه، فعالت بولا، وأخذت يفحصاتها معا، فتمتمت:

"يا لعبائي! إنه ليس ليون."

قال روبرت:

"هل رأيت؟ لم يكن هناك ما يدعو لهذا الفرع. أظنه عميل لها، فهي سمسارة عقارات."

وعادت عيناها تتأملان بولا. كانت قائنة حقا، ولكن شيئا من الاعتداد فيها كان يضيء عليها مسحة غطرسة، كانت مناسبة تماما لرجل مثل ليون وسمسارة عقارات، فهما يشتركان في الكثير.

في طريق العودة، مرا بالبيت الذي كان عليهما العمل فيه، فتركا الدهانات التي اشتريها، وقاما بقياس الأبعاد تمهيدا للشروع في العمل، الصباح التالي.

★ ★ ★

كان ليون في البيت حين عادت هيلين، فتطلع من فوق صحيفته وسألها أين كانت. قالت:

"في نيقوسيا لشراء بعض الدهانات لذلك البيت."

فقال:

"لماذا لم تأت إلى المكتب وتعودي في السيارة معي؟"

بكل هدوء سألها وهو يعلم تماما أنها ستتعجب في نفسها مما جرى للوحتها. أي عذر كان سيديده لو أنها سألته عنها؟ قالت:

"اصطحبني روبرت إلى المدينة. كان عليه هو الآخر أن يتنازع دهاناته وتركناها في البيت."

كان هذا أول حديث يتبادلانه منذ خرج غاضبا بعد شجارهما بالأمس. وكان معه مطبقا، فججعت هيلين أطراف شجاعتهما لوقعا لما كان مقدرا أن يحدث. هل قدر للحياة أن تكون هكذا دائما؟ أن يستطيع ليون أن يثير خوفها كلما فعلت شيئا قد لا يحببه؟

"في أي وقت ذهبتما إلى المدينة؟"

فتحركات إلى مقعد في الطرف الآخر من الغرفة، بعيدا عنه، قالت:

"جاء روبرت ليصطحبني في الساعة التاسعة."

فنظر إلى الساعة حول رصع. وغص حلق هيلين وعيناها تتجهان إلى ساعة الحائط. وقال:

"هل كنتمما معا طيلة النهار؟"

وتحشرج صوتها وهي تقول:

"الواقع ... ليس ..."

فقال بصوت خافت:

"إنها الخامسة والنصف الآن."

"كان يجب أن نذهب إلى البيت لنترك الدهانات."

وطوى صحيفته ووضعها على المنضدة الصغيرة. وبدأت يداها تختلجان بحركة عصبية، وقالت:

"كان علينا القيام بعمل تمهيدي، لأننا سنبدأ في الصباح."

فقال:

"مع هذا الانكليزي؟"

قالت:

"مع روبرت ... نعم يا ليون ..."

وسكتت عندها لاحظت الخيوط البيضاء، الدقيقة تزحف تحت سمرة وجهه - ثم أردفت:

"كلانا لدينا عمل في البيت، فمن الطبيعي أن نكون هناك معا."

"وأحسبك تتوقعين أن تكوني متفيدة طيلة اليوم؟"

وقف - واجتاز الغرفة نحوها وقال بهدوء:

"عدلت عن رأيي بصدد السماح لك بأداء هذا العمل . بوسعك أن تكتبني للسيد كرولي وأخبريه أنك لن تساعدني ."
اتسعت حدقتها غير مصدقة ، وقالت :
"اكتب ؟ أتتوقع مني أن أفعل ذلك ؟ أن أتخلي عن وعدي بعدما وعدت ؟"

وهزت رأسها ، وأردفت :
"لا أستطيع يا ليون . بحثت الأمر معك في البداية ، حين سألني أن أقوم بالعمل ، فلم تعترض إذ ذاك ."
"تغيرت الظروف ."
"كيف تغيرت ؟"

فسرى في عينيه وميض قابس ، وقال باقتضاب :
"ما أظنني بحاجة لأن أجيب ."

واسأنف بعد برهة :
"أنا حصر على ما أقول . لا تقومي بهذا العمل . أتفهمين ؟"
واعتدلت في مقعدها قائلة :
"كلا يا ليون لا أفهم ."

كان صوتها خافتا وثابتا . وقابلت نظراته بدون أن تطرف عيناها ، وهي تصيف :
"أنا أرفض تلقي أوامر هذه منك . لي حق في قدر معين من الحرية ، وسأرضي نفسي به . أعطيت السيد كرولي وعداء وسأفي به ."

وبدأت عينا زوجها لتقدان لكن هيلين عقدت العزم على ألا تذعن هذه المرة . كان للعمل أهمية في أي حال حتى يساعدها على أن تنسى - ولو لبعض الوقت - الألم وخيبة الأمل اللذين كان هو السبب فيهما ، وأضافت بتحد واضح :

"سيأتي روبرت في الصباح . . . وكل صباح أثناء غياب الطفلين . . . وسأذهب معه . إنني أسفة إذا لم ترتج لفكرة عملي معه . ولكن لا حيلة لك في ذلك ."

خيم صمت الذهول على الحجرة ، وبدأ للحظة أن تحديها تجاوز قدرة ليون على ضبط النفس . كان في عينيه وعيد ، وتحركت يده وكأنهما تتحركان للضرب . وبرغم تظاهر هيلين بالشجاعة ، أحست برجفة أعصابها تتجدد . ثم انحسر غضبه ليحل محله تصلب أكثر وضوحا ، مما أقنع هيلين بعقم جهودها في التحدي . كان مصرا على فرض إرادته ، وأخذت تسائل نفسها عما إذا كان يدبر ليفرض عليها الرضوخ لإرادته ،

لم يكن يستطيع منعها من الخروج مع روبرت ، في الصباح ، إلا بحبسها . سألها أخيرا بصوت خافت :
"هل هذا هو قرارك الأخير ؟"

قاومت في تعاسة . لكم اختلاف الموقف عما توقعت حين رجاها السيد كرولي أن ترسم له . كانت سعيدة جدا . وبدأ ليون فخورا بها . حتى ومضة استيائه لفكرة عمل روبرت معها زادت من سعادتها ، فقد اعتبرتها غير . ونص حلقها ، فصعب عليها الكلام ، ولكنها استطاعت أخيرا أن تقول :
"لا بد أن أؤدي العمل يا ليون ، لا لأنني وعدت فحسب ، بل لأنه سيمنحني متعة ."

ضغط على أسنانه ، وازدادت حالة صلابته وهو يحدجها برهة ، وعيناه تنحان عن تفكير . ثم قال :

"متعة ؟ إنك ستستمتعين بقضاء اليوم كله في ذلك البيت مع صديقك الذي من انكثرا . هل أفهم أن هذا ما تقولينه لي ؟"
"إنك تعلم أنني لم أقصد ذلك . إنني استمتع بالرسم . وكنت أطلع إلى أداء هذا العمل ."

نظرت إليه ، ولكنه لم يتأثر بإدارة الذموع في عينيها ، وقال :

"أعتقد أنني أنذرتك - في مناسبة سابقة - بأنني غير مستعد لأن يرتبط اسم زوجتي باسم هذا الروبرت . كنت جادا عندئذ ، وأنا جاد الآن . إما أن تنفذي رغبتي طائفة ، أو اتخذ الاجراءات لأكفل انصاعك . . . الاختيار متروك لك وحدك ."

احتقن وجهها غضبا ، وصاحت :
"لن أقبل أوامرك خاضعة . أما اتخاذ اجراءات تكفل أن أتخلي عن العمل ففكرة سخيفة ! إنك لا تستطيع أن تحبسني في البيت ."

فوافقها قائلا بصوت خافت :
"كلا يا عزيزتي . لم أفكر في هذا ."
وعاد الغرفة بدون أن يزيد كلمة . وسمعت صوت السيارة تنطلق مبتعدة .

كانت في المطبخ تساعد أراتيه في إعداد العشاء ، حين سمعت صوت السيارة مرة أخرى . وفي الحال اندفع الطفلان داخلين . ووثبت فيونا تحتضنها بشدة قائلة :

"عمتي هيلين ! أحبينا العمة أسعينا ، ولكننا سررنا كل السرور حين جاء عمي ليون ليأخذنا ."

وقال تشيبي بتاكيد:
 "لن أتعهد عن البيت ثانية... بدونك."
 وتحول الى عمه قائلاً:
 "لا تدعنا يا عمي ليون!"
 أطل عليه ليون مبتسماً وقال:
 "كلا يا تشيبي، لن أدعكما تبعدان أبداً."
 وأردف في خيرة:

"لقد ظننت أنكما كنتما سعيدين!"
 فبادرت فيونا، وكأنها أدركت أنها لم يقدرها كرم ضيافة
 أسديتا:
 "بل استمتعنا... لكننا تحبكما أدتما الاثنين أكثر مما تحب
 الجميع ولهذا أردنا أن نأتي."

٩ - الزوجة آخر من يعلم

رت الأيام متناقلة، فالطفلان يلعبان خارج الدار معظم الوقت،
 وسخط هيلين على زوجها يتزايد حتى بلغ قسطاً هائلاً. بأي
 حق يسيطر عليها هكذا؟ كانت انكليزية، وليست جارية لا هم
 لها سوى الاعتناء بزوجها والاطفال. كان من حقها وقت فراغ
 تمارس فيه هوايتها، بجانب هذا، كيف يقضى ليون كل
 الوقت في الخارج ويتركها مع الطفلين؟ حتى يوم الأحد كان
 يخرج وبالنظير كان يصاحب بولا مكسويل. وعندما اشتكت من
 تركها وحيدة، ذكرها بأنها موجودة لرعاية الطفلين، في
 المقام الأول.

ولكي تجبره على البقاء في البيت، ولو لأهسية واحدة،
 دعت نرودي وناسوس للعشاء. كانوا قد زارا القليلة مرة
 وزارتهما هيلين وليون والطفلان مرة، وانسجم ناسوس وليون،
 فلم تتوقع هيلين لحظة أن يرفض زوجها البقاء في البيت،
 عندما أخبرته بالدعوة. لكنه قال بفتور:

"مساء غداً؟ إنني على موعد، ولن أعود قبل العاشرة."

أومضت عينها الزرقاوان وتساءلت:
 "موعد؟ في المساء؟"

وكان يقف ويداد في جيبه، ووجهه مكفهر بالخشونة التي
 أصبحت أخيراً جزءاً من قسماته. وقال:

"هناك أناس لا يمكن اللقاء بهم في النهار، ولهذا يقابلونني
 مساءً، مثل بولا التي تعمل طيلة النهار."

كان بوسعه أن يعتذر، ولكن بولا لم يكن يسعدها أنه يفضل
 البقاء في البيت. وبرغم اقتناع هيلين بأنها تضع الوقت،
 ألحت قائلة:

"إنهما سيشرعان بمهانة كبيرة. وأنا سأشعر بخرج شديد.
 ماذا أقول؟"

تحرك في صبق وقال:

"لماذا لم تستشيريني قبل دعوتكما؟"
 فأقرت بصراحة:

"أعتقد أنه كان ينبغي علي ذلك. سيكون الموقف صعبا بالنسبة الي يا ليون".

فانبعثت من شفثيه زفرة وقال:

"حسن جدا، سأرجىء عطلتي. لكن أرجو استشارتي في المستقبل. ليس من اللياقة في العمل أن أضرب موعدا ثم ألغيه قبل حلوله بوقت قصير".

غشي عينيها شيء من الحيرة، هل يحتمل أنه لم يكن يلقي بولا كل مساء؟ هزت كتفها، وعادوها كل الأسى المرير. كان حادقا. ألم يثبت لها هذا بأدلة لا سبيل لانكارها؟

جاءت ترودي ونانوس مبكرين، فقصي الجميع الغيرة الاولى من الامسية في الحديقة، وأثار مرح الطفلين وجود ضيقين فرضا أن ينصرفا، وارتفع صوتاهما وضحكهما طيلة الوقت. فقال ناسوس:

"هذان الاثنان محظوظان. فقدأ أبيا وأما، فوجدا غيرهما".

والتفت نظرة هيلين بنظرة زوجها فاذا باختلاعه سخريه تلم بفقه وعينيته. إذ طرا على مسئلة نحوها تغيير قام منذ أحضر الطفلين من عند أسمينا، على غير توقع قبل أسبوعين عندما فتر اهتمامه بها ورغبته فيها، وعادت العلاقة التي كانت قائمة في بداية زواجهما. واعتقدت هيلين أن هذا هو ما تريده. ألم تتوقع هذا عندما قبلت عرضه للزواج؟ أما الشيء الذي تأباه، فهو الطريقة المتسلطة والامرة التي كان يكلعها بها أحيانا. ولو سمح لها بقدر من الحرية، لقيعت بنصيبها محتملة. لكنها مع تنابع الأيام أخذت تشعر باستياء متزايد. وأصبحت تشعر - في بعض الاحيان - بأن الظفر ينصيب من انتباهه خبر من عدم الاهتمام بها بتاتا.

أدركت أن بصر ترودي مركز عليها بتفرس، فالتفتت اليها مبتسمة. أتراها لاحظت شيئا؟ إنها لا تحتمل أن يظن أحد أنها لم تعد جذابة لزوجها.

انساب اليهم صوت فيونا المذنب وهي تقول:

"هل تسمح بأن تأتي وتدفعني يا عمي ليون؟ تشيبي لم يعد راغبا".

فقال تشيبي عندما نهض ليون وسار الى الارجوحة:

"إنه دوري... إنها تريد الارجوحة طيلة الوقت".

"حسنا يا فيونا، اتركي الارجوحة".

وحاولت أن تتمنع، ثم رمقت عمها من تحت

أهدابها الطويلة بإغراء:

"ادفعني مرة أولا... أرجوك".

صاح:

"انزلي".

فاطاعت. وضربها بصفحة يده، فانتسعت عيناها دهشة للمفاجأة ورمته بنظرة شاكية، وصاحت:

"لقد أوجعني!".

وهرعت الي هيلين وهي تفرك أثر الضربة والقول:

"إنه قاس، لم أعد أحبه".

فضحك الجميع فرمقته باستهجان، بينما بسطت هيلين ذراعيها قائلة:

"مسكينة يا فيونا! تعالي واجلسي على ركبتني".

قالت تشكو:

"لكم أوجعني! إنه قبيح!".

فأراحتها هيلين على ركبتها قائلة:

"إنني أحبك، ولكني لا أحبه".

قالت ترودي وفي صوتها نبرة خنين:

"أنا واثقة بأنك تحبينه كثيرا. وهو يحبك قطعا".

فقالت فيونا وهي تراقب عمها يدفع الارجوحة:

"كلا، لو كان يحبني ما أوجعني".

وجال سحاطر هيلين: "صدقت، فالمرء لا يوجع الذين

يحبهم". ترك ليون الارجوحة وعاد اليهم، فوقف بحوار مقعد

هيلين. وظافت عيناه بزوجه في غير مبالاة، ثم استقرتا على

وجه ابنة أخيه، فقال:

"ما بالك؟"

فقالت:

"أوجعني، لم أعد أحبك. إنني أحب عمتي هيلين، فهي لا

تؤلم أحدا".

ساد صمت وجيز. وشعرت هيلين بالداء تتصاعد الي

وجنتيها عندما التفت عيناها بنظرة زوجها المتفرسة. وقال

بصوت خافت:

"ألا تؤلم أحدا يا فيونا؟"

فزادت فيونا ذراعيها احكاما حول عنق هيلين، وقالت

مؤكد:

"كلا، إنها دائما رقيقة، ولهذا أحبها".

انبعثت منه زفرة وجيزة، وجلس الى جوار تاسوس،
وانهمك الرجلان في الحديث. فقالت هيلين بعد برهة:
"سأذهب لأعني بالعشاء، فإن أرائيد متوعة، ولم تأت
اليوم".

فنهضت ترودي قائلة:

"هل أساعدك؟"

"كل شيء جاهز، والطعام في الفرن. لم تبق سوى المائدة".
فقالت ترودي وهي تتبعها:

"سأتولى إعدادها".

أعدت ترودي المائدة، وشغلت هيلين بعمل المطبخ. ثم
نادت الطفلين، فغسلت أيديهما، وهما محتجان بأن الوقت
مبكر للنوم. ولاحظت هيلين نبرة الحنين تسري ثانية في
صوت ترودي وهي تلاحظهما. فاعترفت بأنهما - هي وتاسوس -
يريدان أطفالاً، فإذا لم يرزقا قريباً، فسيقومان بتبني
طفل.

قالت هيلين:

"من العجيب أن تعنيا بأبناء غيركما".

وعجبت في نفسها مما تفعل لو أبعد تشيبي وفیونا عنها.
لم يكن عمهما قد تبناهما قانونياً، وكانت هيلين تفكر في
أما أحياناً.

سأل تشيبي والأهل براوده وهو يتأمل الحلوى والفواكه التي
نسقتها هيلين في أطباق فضية:

"ألا نستطيع البقاء لتناول العشاء معكم؟"

وقالت فيونا:

"كم من العمر يجب أن تبغلي لتستطيعي البقاء للعشاء؟"

فقالت هيلين وهي تضع عشاءهما على منضدة صغيرة بجوار
النافذة:

"تعالي وتناولوا البسكويت والحليب".

قالت فيونا:

"قد يسمح لنا عمي ليون لو طلبنا منه".

فقال ليون عندما أقبل من الشرفة وسار الى التلاجة:

"بماذا أسمع؟"

قالت:

"نريد أن نبقي مستيقظين، لتتناول العشاء معكم".

وتطلعت اليه في انزعاج، فمست فمه ابتسامة خفيفة وقال:

"إنك تطلين البقاء... في حين أنك لم تعودي تحبيني".
فبادرت قائلة:

"ولكني أحبك الآن، أحبك بقدر ما أحب عمتي هيلين".
قال:

"هكذا أرحت قلبي".

وفتح باب التلاجة، ونظر في داخلها، ثم سأل عابثاً:

"أليست لدينا مشروبات معبأة في علب؟"

فخفت اليه هيلين قائلة:

"إنها في الجزء الخلفي".

وبدأت تنقل الأشياء التي تحبها. ومدا يديهما معا
لاحضارهما. فتلامست اليدان. وأسرع ليون يسحب يده. وتركها
تخرج القلب وقدمتها له، فتناولها بدون كلمة، حملها
والأكواب عائداً الى الحديقة. وظلت هيلين بجوار التلاجة
تفرك يدها برفق حيث لامست يد ليون. وطرفت عيناها فجأة.
ألم تنقض سوى أسابيع قليلة حقاً. منذ كان يدلها بحنان...
منذ كان ينتهز كل فرصة ليمسك بيدها، أو يحيط كتفها بذراع
رقيقة؟ وما هو ذا الآن لا يطيق مجرد تلامس أصابعها
بأصابعه.

* * *

أخيراً ذهب الطفلان الى قراشيتهما. وانتهى العشاء
والسهرة على وجه بهيج بدون أن يخطر للضيفين أن بين هيلين
وزوجها قطيعة ما. وأرتاحت هيلين الى تخليه عن المسك
الصارم الذي انتهجه أخيراً نحوها.

قال تاسوس وهم يهيمون بالافتراق:

"يجب أن تزورانا".

وكان مع ترودي في السيارة بيتنا وقف ليون وهيلين
بجوارهما، قال ليون:

"لندع تحديد الموعد يوماً أو اثنين. سأخبر هيلين متى أخلى
لذلك".

هل كان يعني أنه لن يرد الزيارة؟ تمنيت هيلين لو أنه لا
يفعل ما يقصد صداقتها مع ترودي، كما فعل بالنسبة

الى روبرت . فقد نفذ صبر روبرت منذ رضخت لرغبة زوجها وتخلت عن العمل في القنصلية حتى لم يعد يحياها ، ولو باجاعة من رأسه ، اذا تصادف أن تقابلا في القرية .

قالت ترودي ، وهي تطل من نافذة السيارة :

"أتمنى أن يأتي الطفلان في وقت ما . لماذا لا تحضرينهما حين تاتين يوم الجمعة ؟"

فقالت هيلين مترددة :

"لا أدري ، ربما يكونان شديدي الصخب ، ولديك أشياء بديعة في البيت ."

فقال تاسوس :

"وفي منزلكما أيضا ، إننا نحب الناس في المسكن ، فلا تشغلي بالك بالأشياء ."

تدخل ليون قائلة :

"لا أنصور أنهما يسيئان السلوك يا هيلين . ستذهب جميعا الى نيقوسيا يوم الجمعة ."

ظلت هيلين وليون واقفين حتى غابت السيارة وراء منحرج ، ثم دخلا البيت . ولاحظ لهما أن المناسبة الاجتماعية البسيطة خفقت من التوتر بينهما . فقالت تستدرجه :

"أنا استمتعت بوجودهما . وأنت ؟"

فقال وهو يتثاءب :

"كانت من أروع الأمسيات . . . وكان طعامك ممتازا ."

ابتسحت وهي تجلس ، وتود أن يحذو حذوها . ما بالها ؟ قد لا يؤدي هذا الا الى هوانها ، فليون لم يعد يأبه لهما ، وكانت كرامتها تخول دون أن تتسول أية محاباة أو وصال . ولكن ، ليتها يكون رفيقا فحسب ، فلم تكن تحتفل أن تستمر على هذا المنوال . كان من السهل أن تقول أنها لم تعد تحفل به ، ولكن من العسير أن تقنع نفسها بصدق هذا .

قال ويداه في جيبيه :

"الوقت متأخر . أرى أن أذهب الى فراشي . طابت ليلتك يا هيلين ."

فغاص قلبها ، وقالت بصوت مرتجف :

"طابت ليلتك يا ليون . إنك على صواب ، فالوقت متأخر ."

* * *

اتصلت العمة كريستولا هاتفيا - في اليوم التالي - تسأل عن ليون فلما أخبرتها هيلين بأنه في المكتب ، قالت مغضبة :

"كلا ، ولا أجده كلما طلبته هاتفيا . ماذا فعل بصد الدار التي سيتاعها لي ؟ قال منذ أكثر من أسبوع أنه رأى ما يناسبني ولكن الثمن مرتفع كثيرا . وكنت أتوقع أن يتمكن من تخفيضه ."

"ألم يتصل بك بعد ذلك ؟"

"لم أره ولا سمعت منه . في أي حال ، أين هو ؟ لماذا ليس في مكتبه ؟"

"لا أدري يا عمتي كريستولا . لعله خرج في عمل . . ."

"لماذا ؟ كل يوم ؟ أخبريه بأنني أريد رؤيته هذا المساء ."

"إنه يعود متأخرا عادة ولكنني سأخبره عندهما يعود . وإذا لم يكن الوقت متأخرا جدا فقد يوافيك ، والا فسيأتي في وقت آخر . . ."

"وقت آخر ؟ متى ؟ اسمعي يا هيلين ، ما الذي يجري ؟ لماذا لا يعود للبيت مبكرا ؟ أين يذهب ؟"

ترددت هيلين . كان واضحا أن العمة كريستولا في دهشة من سلوك ابن أخيها ، واحتارت هيلين ، انتحل ليون أعذارا ؟ ولكن ، ماذا تقول ؟ وانتهت الى القول :

"لست أدري أين يذهب . فهو لا يحدثني في شؤون عمله ."

صاحت العمة :

"عمل ؟ أتقولين أنه ينجز عملا في الليل ؟"

وأزاء عجز هيلين عن الجواب ، لأدت بالصمت . فاسترسلت العجوز وفي صوتها نبرة الشك :

"لم يكن أبدا ممن يترددون على المطاعم والمقاهي ، أعني بانتظام . فأين هو ؟"

ووعدها هيلين بأن تبلغه رسالتها ، ثم أعادت السجاعة . . .

لم يكن ليون في المكتب ، ولم يعد الى البيت إلا في ساعة متأخرة ؟ لعله من الأفضل أن يذهب ويمشي مع بولا مكسويل

وحاولت أن تكبح دموع الغضب ، ولكنها ما لبثت أن أسلمت نفسها للبكاء . . . واذ ذاك أقبلت فيونا فأخذت تحديق فيها مذهولة ، ثم أحاطت خصرها بذراعيها ، قائلة :

"لماذا تبكين ؟ أرجوك ، لا تبكي ، هل أنت حزينة يا عمتي هيلين ؟"

جففت هيلين عينيها ، واصطنعت بمجهود ابتسامته

باهتة، وقالت:

"كلا، يا عزيزتي، ولا شيء".

لكن الدموع عادت. وحاولت هيلين التخلص من ذراعي قيونا، لكن الصغيرة تعلقت بها بشدة وشرعت تكي فتهافت هيلين:

"اسكني يا قيونا العزيزة، لا شيء هناك إطلاقاً".

"بل إنك حزينة، ما كنت تبكين لو لم تكوني حزينة".

جففت هيلين عينيها وتحولت تمسح الدموع عن وجه قيونا الصغيرة، وهي تقول:

"لست حزينة يا حبيبتي، كوني مطيعة وكفي عن البكاء".

قالت قيونا وجسمها يرتج بالتشنج:

"لماذا كنت تبكين؟"

قضمتها هيلين لحظة بدون كلام، ثم قالت أخيراً:

"لم أكن بصحة جيدة".

فتطلعت قيونا بلهفة، وبدا أنها على وشك البكاء ثانية، بادرت هيلين قائلة، وقد حزنّت لتكرر الطفلة:

"لم أعد كذلك. إنني الآن بخير يا عزيزتي".

دهشت هيلين إذ اتقدت عينا ليون غضبا، عندما أبلغته رسالة عمته وقد عاد إلى البيت مبكراً خلافاً للعادة. وصاح محنقاً:

"هل تتصور أنه لا يوجد ما يشغل بالي سوى دارها؟ عليها أن تنتظر فهناك أمور أهم تحتاج العناية حالياً".

ما هذا السخط؟ وما معنى هذه الكلمات؟ هل حدث بينه وبين بولا ما يسوء؟ أم أن علاقتهما أصبحت أكثر عمقا وتوريطاً؟ واضطرت إلى أن تسأله:

"ما هذه الأمور الهامة يا ليون؟" ولكنه هز رأسه وأبى أن يخبرها. وإن كانت توقفت ذلك، كان يبدو مجهداً، ولاحظت عينية كذلك، لكرم لدوان متعبتين! ونفث الشيب عند سالفه بدت بيضاء تقريباً! ما الذي ألم به؟ وفي لحظة وجيزة لم يخالجها سوى الحب والحنان، وتحترقت إلى أن تحيطه بذراعيها، وأن تجذب رأسه إلى صدرها لتواسيه، لكنها أسرعت تقاوم لين قلبها. إن ما حدث - أيا كان - لا يعني سوى بولا. وإذا انعكس في علاقة كهذه، فعليه وحده أن يحمل عبء أي، متاعب تترتب عليها. لماذا تمنحه عطفها وهو يفض عليها بالعطف؟

لم يخاطبها لساعة أو أكثر. وعندما أقبل تشيبي يطوح بكرته ويتلقفها وصاح فيه مغضبا، صاحت على الرغم منها:

"ليون! لا داعي لأن تكلم تشيبي هكذا".

وجاء رده حاداً، فصاحت به:

"لا حاجة لك بأن تصرخ، فلست صماء".

حدجها بغضب، وهم أن يتكلم، ثم سكنت وأخلد للصمت. وكانت هيلين تتأجج غضبا. ظلت أسبوعين تقضي الامسيات وحدها، ولما عاد مبكراً مرة، لم يفعل سوى أن ينفث غضبه فيها وفي الطفلين. وسعت إلى الحديقة لتنضم إلى الصغيرين، وتركوه وحيداً. لكنه ما لبث أن جاء وقال أنه ذاهب لمقابلة عمته - كان صوته قد فقد حديثه، لكن مزاجه ظل مكدرًا. فسألته:

"هل عثرت لها على دار صغيرة؟"

"كما تبغني لكن أغلى مما توقعت. على أن بيتها العتيق جلب سعراً ممتازاً فستخرج بفائض كبير".

ودفع يداً كليلة خلال شعره، ثم انطلق - وهو لا يزال مضطرباً متعباً. وانتقلت حاله إلى هيلين، فلن تطلق البقاء، وحيدة أصية أخرى، واستبقت الطفلين. ولدهشتها عاد ليون قبيل الساعة التاسعة فلما رأى الطفلين ساهرين، قالت:

"استنقيتهما ليؤنسائي. من الممكن الآن أن يذهبا إلى النوم".

قال/متردداً:

"لا داعي اتركيهما فترة، أحضري عشاءهما هنا".

عجبت هيلين. كان دائم الحزم بالنسبة لموعد نومهما. وهزت كتفها وذهبت إلى المطبخ، وعندما عادت إلى حجرة الجلوس، وجدت قيونا على حضن عمها، وذراعها حول عنقه، ووجنتها تلتصق بوجنته. أما تشيبي فظل جالساً على السجادة، واجماً. وأطل عليه ليون من مجلسه لحظة - ثم بدا على وشك البكاء. وأدركت هيلين ما به. ولكن ليون عاد يسأله، فقال مشيحاً ببصره:

"إنك لا تحبني قدر ما تحب قيونا، صرخت في مغضبا، عندما كنت ألعب بالكرة".

بسط ليون ذراعه للصبي، قائلاً:

"إنني آسف يا تشيبي" وجلس الطفلان على ركبتَي ليون. وكان وجهه متوارباً عن هيلين، حين دخلت الحجرة

لكنها شعرت بحزن عميق بتملكه . ليتها يخبرها بما يكره ا

مالت فيونا تنفخس في وجه عمها الاسمر ، وسألته :

"أتحب تشيبي بقدر ما تحبني؟"

فقال :

"أحبكما سواء ."

كانت هيلين تعرف أنه صادق . وما كان ثمة شك أنه أخذ

يزداد حيا لهما . ولم تملك سوى أن تواصل التحديق فيه .

قالبيرة المرتجفة في صوته ، كانت توحي بتعاسة خالصة -

وذراعه كانا تحيطان تشيبي وفيونا بأحكام ، وبدا كأنه لن

يقلتها أبدا . وقالت هيلين مؤنية نفسها :

"ما بالي؟"

ثم أردفت لمجرد تخفيف التوتر في نفسها :

"هل سويت كل شيء مع العمة كريستولا ؟ هل ترغب في الدار

التي وجدتها لها؟"

أوما برأسه - ورمقها بنظرة عابرة ، شعرت معها أنه لا

ينتهي إليها مطلقا . وقال وهو يسحب ذراعه ينزل تشيبي

انتظارا للعتاء :

"إنها سعيدة بالصفقة كلها ، زال عن ذهني هم واحد على

الأقل ."

واحد . . . ما المشكلة الفظيعة التي تشغل بال زوجها ؟ هل

تتعلق بشيء غير علاقته ببولا ؟ هل هي متعلقة بالمال ؟

عندما أوى الطفلان إلى الفراش ، وغسلت صحون عشاءهما ،

عادت إلى حجرة الجلوس ، فإذا ليون على الأريكة ، وقد أسلم

رأسه إلى راحتيه . واعتصر الأسى قلبها ، ونسبت ببولا ، وكل

شفاق ، وكل كلمات غاضبة دارت بينهما . لم تعد واثقة إلا

أنها لا تزال تحبه ، وأنها ستظل تهتم به مهما فعل بها في

الحاضي أو في المستقبل - ومست كفه في تهييب وقالت :

"ليون . ألا تخبرني بما يفكر ؟ أهى النقود؟"

فبادر قائلا :

"كلا ، يا هيلين . ليست خسارتي في النقود ."

كان واضحا أنه خسر شيئا . لعل ببولا نبذته . وعادت تسأله :

"إذن ماذا ؟ ألا تخبرني بما يسوءك يا ليون؟"

لم يجب على الفور ، بل استغرق في التفكير ، وشعرت أنه

كان يحاول أن يتخذ قرارا . لكنه قال أخيرا في هدوء وحسم :

"كلا يا هيلين ، لا أستطيع أن أخبرك ."

سحبت يدها ، وشاحت ببطء والأسى يفيض في قلبها . لم

يكن لجوابه سوى معنى واحد ، هو أن شقاءه متصل ببولا . فلو

كان له سبب آخر ، لما وجد مبررا يمنع أن يخبرها .

★ ★ ★

كان عليهم أن ينطلقوا مبكرين يوم الجمعة ، لأن ليون يريد

الالحاق بالقافلة . وكان هذا يعني أن يصلوا إلى نيقوسيا قبل

الساعة الثامنة فاقترحت هيلين أن يمكثوا في المكتب فترة ،

وقال ليون :

"أخشى أنني سأكون مشغولا ، سأقلكم مباشرة إلى بيت

ترودي . إنها تعرف أنكم قادمون مبكرين ، لأنني قلت أنكم

ستأثرون معي ."

"ولكن الساعة الثامنة . كلا يا ليون ، إذا لم تردنا في المكتب ،

فسنقوم بجولة بعض الوقت ."

قال :

"ليست المسألة أنني لا أريدكم ، ولكنني مشغول جدا ."

لا أثر لاعتذار في صوته ، ولكن السبب كان واضحا . لا داعي

للقلق ، فهي لن تسأله أبدا عن اللوحة ، لأن كبرياءها يمنعها .

قالت فيونا :

"ولكنني أريد الذهاب إلى المكتب ، فلم أره سوى مرة واحدة ."

وقال تشيبي :

"سنلتزم الهدوء يا عمي ليون ."

كان ثيو موجودا عند وصولهم ، وقد انصرف إلى ري الزهور

حول الجدار الخارجي وعلى جانبي السلم .

قالت فيونا وهي تسير على السجادة السميكة ، متأملة كل ما

حولها :

"ما أجمله ! لم يكن هكذا من قبل ."

فقال عمها :

"هكذا كان تخافا ، لكنكم لم تتقبحوا لأنكم كنتم تشعرون

بغربة !"

حقا ، ألم يكن الطفلان يقولان أن عمهما فظيع ! وكانت هي

نفسها مضطربة ، لا تدري كيف سينسجمان مع رجل

اشتهر بأنه يكره الأطفال، لكنه سرعان ما تعود أن يحبهما، وسرعان ما بادلاه حيا بحب، ليتة يحفل بها هي، عندئذ سيكونون أسرة سعيدة.

كان ليون يهجم بالانتقال الى المكتب الداخلي، حين رن جرس الهاتف ورفع الساعة، وسرعان ما بدا التحفظ على معياد، وألقى بنظرة سريعة نحو هيلين لم تدع لديها شك في أنه يفضل أن تكون في مكان آخر، وكانت كلماته حذرة، وما لبث أن غطى السماعة براحتة، وقال:

"أسمحين باصطحاب الطفلين الى الخارج يا هيلين؟ آسف، ولكن هذه الحالة خاصة، ادخلوا مكنتي."

وشحب وجهها لكنها لم تجب، بل دفعت الطفلين بلطف الى حجرة ليون.

تري من على الطرف الآخر من الهاتف؟ كانت امرأة، اذ سمعت هيلين صوتها، امرأة كانت تعرف بعزمه على الحضور الى المكتب مبكرا، ما الذي قالته حتى يبدو الحذر في عينيه؟ كان كل ما أتيج لهيلين سحاده هو: "صارحك بالأمس، لكنك حين اتصلت ثانية وقلت أنه غير كاف، سحبت ما عرضت. فقلت أنك ستتصلين ثانية في الصباح، نعم، بوسعك أن تناليه بالتاكيد."

بعد لحظة او اثنين، أقبل ثيو، وسار الى المكتب، فأخذ بعض الاوراق، وسقط دفتر شيكات ليون على الارض، فانحنت هيلين لتلقطه، ولكن ثيو سبقها، وقال وهو يشعر بالحاجة الى بعض الايضاح:

"هذا ما يريد السيد بيترو، الشيك للسيدة."

وابتسم وهو ينتزع شيكا ثم يعيد الدفتر الى الدرج، وخرج. وما لبثت هيلين أن سمعت سيارته تنطلق، السيدة؟! لمعت عيناها، ثم غامتا، ولمحت الرقم، حين وقع الدفتر مفتوحا - خمسة ملايين من العليمات - خمسة آلاف جنيه، واتجهت نظراتها الى الدرج الذي احتوى الدفتر. وكانت فيونا قد خرجت الى الشرفة، بينما ظل تشيبي جالسا في مقعد عمه. وتسارعت دقات قلبها لما جال بخاطرها... فهناك خطأ. ولكن، لا بد أن تعرف، فقد لا تكون المرأة بولا. وراحت تدعو ألا تكون هي. اذ لمحت تاريخ الشيك وحرف "ب" لماذا أعطاها التقود؟ هل تورطت بولا في دين؟ ألهذا كان ليون قلقا ومهموما؟

نظرت اليه عندما دخل الحجرة، فإذا معظم القلق فارق معياد وبدا أن هذا كان علة قلقه وهمه حقا، وقبل أن تتكلم، اندفعت فيونا الى الحجرة قائلة:

"أشعر بالأم يا عمي ليون."

وتعلقت به، وشرعت تبكي قائلة:

"إنه شديد."

ورفعها وأجلسها على ركبته، وقال:

"أين الألم؟ في بطنك؟"

فهزت رأسها وقال:

"كلا، لا أدري، زال الآن."

وتناول جنديله فجفف عينيها وهو يقول:

"الفتيات الكبيرات لا يبكين لمجرد الشعور بتوعلك."

"العمة هيلين فتاة كبيرة، وهي تبكي حين تشعر بتوعلك."

اتجهت عيناها الى هيلين، فأخمر وجهها وهو يقول:

"متى كانت العمة هيلين مريضة؟"

فقالت الصغيرة:

"منذ أيام، وبكت كثيرا، أليس كذلك يا عمتي هيلين؟"

وسمعت أختها يناديها، فأسرت اليه، وعندئذ سأل ليون زوجته:

"لماذا كنت تبكين يا هيلين؟"

لم يعد صوته خافتا رقيقا، بل عادت خشونته المفاجئة.

وقالت:

"كنت متوعدة، كما قالت فيونا."

"لا تكذبي، لا بد أنك كنت أكثر من مستاءة حتى أنك سمحت

لفيونا أن تراك باكية، لعل هذا يرجع الى أنني لم أسمع لك

بلقاء صديقك الانكليزي."

وجدقت فيه بحيرة، وقالت:

"لا أظنني أفهمك يا ليون، لماذا تقحم روبرت؟ كأننا لم نكون

مجرد صديقين."

"إنكما أكثر من صديقين بكثير، فلا داعي لأن تحاولي التفرير

بي."

اشتدت حيرتها، وصاحت:

"كيف تجسر على هذا القول؟ إنني لا أكاد أعرفه!"

بأي حق يجلس هناك ويرميها باتهامات، وهو أعطي بولا

منذ قليل خمسة آلاف جنيه؟ هل تخبره بما عرفت؟ كلا،

من حقّه أن يفعل بنقوده ما يشاء ؟
"إن معرفتك به كانت كافية لأن تدخله بيتي !"
"أدخله ؟ كيف لك أن تعرف ؟"
"قبل لي أن هذه الأمور تنتشر ."
واحتقن وجهها غضبا وهتفت :
"ولكن من ؟ أهى التي أخبرتك ؟"
فقال :

"هي ؟"
"أنت تعرف جيدا . بولا مكسويل !"
"أصبت إنها أخبرتني ."

حملت فيه حائرة . أكان يعرف طيلة الوقت ، ومع هذا لم يخبرها إلا الآن . أكان ليون من النوع الذي يظل صامتا إزاء أمر كهذا ؟ لماذا لم يتنهر الفرصة لتعريضها مرة أخرى لشقاق عنيف ؟ أمر يتعذر تصديقه . وسألته :
"لماذا لم تقل شيئا عن هذا قبل الآن ؟"
"كانت لي أسباب خاصة ."
"أية أسباب ؟"

قال :

"إنها لم تعد الآن ذات أهمية ؟ المهم أنني لم أدم زوجتي تجري في كل مكان مع رجال القرية ."
فاشتد احمرار وجهها وصاحت :
"رجال ! لا أسمع لك بأن تقول هذا لي . كيف تجسر وأنت تخرج معها ."
فنظر إليها مذهولا :

"معها ؟"

اشتدت فورة غضبها ، وألقت اليد بكل ما عرفت :
"بولا مكسويل ! هل أخبرتك عن روبرت ؟ ألا اسمع . . . عندما رد روبرت على مخابرتك ، ظننته أنت ، وأخذت تحدثه عن الغذاء الذي دبرتماه ."
اعتدل في مقعده ، والدهشة تكسو مخياه ، وهتف :

"غذاء ؟"

واشتد غضبها ، فمضت تقول بصوت مرتجف :
"أجل . . . ولا داعي لهذا النظام ، فأنت تعرف كل شيء ."
كانت تطلب منك أن تحضر طعاما وشرايا ، رنكما كنتما ذاهبين إلى العراء . . .

ونطقت العبارة الأخيرة بتؤدة متعمدة ، لتستقر كلماتها في نفسه ، ثم سكنت في حيرة ، عندما استلقى زوجها في مقعده وبداه في جيبه وعلى مخياه مزيج من الدهشة والارتياح ، وزادها حيرة أن قال في هدوء وخفوت زاداها هياجا :

"أصدقين هذا حقا يا هيلين ؟ أهو السبب في . . . أهذا ما كان يضايقك ؟"
"أصدق ؟ طبعاً . فكل شخص يعرف بعلاقتك مع بولا ، أخبرني روبرت أنك كنت تصاحبها قبل أن تلتقي بي ."

"كنت وبولا صديقين يوما ."
"ولا تزالان . . . أما أن يضايقني هذا ، فأنت تتجلى نفسك . لا أهتم ولو كنت تصاحب عشر نساء ! إذا كنت تقضي معها كل مساء ، إذا كنت أعطيتها لوحتي ، مع أنك قلت أنك تعجب بها جدا . . ."

وناضلت لتكبح الدموع الحارة التي وثبت إلى مقلتيها ، وواصلت حديثها غير مكترثة بكتمان شيء :

"لست أخفل بأنك أعطيتها خمسة آلاف جنيه !"

"أأنت ؟ كيف تعلمين بهذا ؟"

وشرحت له ما حدث ، وأردفت متحدية :

"روبرت صديقي ، ولا يهمني ما تظنه بي ، لا أخفل بشيء ."
وهرعت مغادرة المكتب ، وهي تناضل لتهدئة نفسها ، وراحت تنادي الطفلين . وسمعت صوت زوجها يناديها بلطف ، ولكنها واصلت ركضها ، حتى كادت تصطدم برجل طويل ، أشيب ، أقبل على المبنى . وسمعت صوت زوجها يزداد اقترابا :

"هيلين . . . أينما الحمقاء الصغيرة . . ."

١٠ - لغز اللوحة

كان من المتوقع أن تظن ترودي لحدث شيء ما، فما أن خرج الطفلان يلهوان في فناء البيت، حتى سألت هيلين في لهفة عما يزعجها. وأجابتها بصوت متهدج:

"لا شيء يا ترودي."

وجاهدت لئلا تبكي، لكن ترودي ألحت عليها، حتى أقضت إليها بكل شيء وجزعت ترودي. وهدقت فيها غير مصدقة في البداية لكنها تقبلت القصة شيئاً فشيئاً.

"أعطاه خمسة آلاف جنيه؟"

"وهكذا ترين أنه لا بد مدله بهواها."

"لماذا لم يتزوجها؟ ألم نقولي أنه عرفها قبل أن يعرفك؟"

"كانت تتوقع دائماً أن يتزوجها، لكنه لم يكن ممن يتزوجون ولعله ما كان يتزوج لولا الطفلين."

أرسلت ترودي صفيح دهشة، وقالت:

"خمسة آلاف جنيه... لا بد أنها استدرجته حيث تريده بلا شك."

"لا شيء يمكن أن يزيد الموقف سوءاً بيننا. ليتني أستطيع أن أتركه، ولكني لا أستطيع ترك تشيبي وفيونا أبداً."

أحاطتها ترودي بذراعتها، وقالت:

"سجلبان لك السعادة يا هيلين. إنني متأكدة."

وتهدج صوتها، وهي تقول:

"تصوري أن يحدث هذا لك أنت دون الناس جميعاً! وكان صدمة واحدة لا تكفيك."

"أنا المخطئة يا ترودي. أقسمت ألا أتعلق بأحد ثانية، وألا أدع رجلاً آخر يجرح مشاعري."

"الذي لا أفهمه هو لماذا أخبرك بكل هذا عن روبرت صباح اليوم فقط؟ لا بد أنه عرفه من مدة."

"أجل، وهذا يحيرني أنا الأخرى، لأنه أصبح في الفترة الأخيرة شديد الحرص لماذا يلزم الحذر؟"

كان ليون يبدو حذراً بالتأكيد في الأسابيع القلائل الماضية. وكان فاتراً نحوها، لكن بدون مشاجرات ولا كلمات جارحة. وحرص على التباعد. وعللت هذا بأن رغبته تضاعفت، لكنها الآن لا تجزم بهذا. أترى السبب أنه... لعله ما... لم يشأ أن يثير اضطرابها، أو يجعلها تزداد تبرماً بحياتها؟ لكن، ما سر هذا التغير المبالغ؟ لو لم تروعه اليوم لعرضها - مرة أخرى - لمشهد عنيف، وجعلها تشعر - مرة أخرى - بقوة سلطانه.

مرة أخرى، سألت نفسها: ما السبب في التغير؟ وقالت وكأنها تفكر بصوت عال:

"هناك أمر لا أفهمه يا ترودي. ولكن، لا قيمة له لأنه لا يمكن أن يحدث أي اختلاف بالنسبة إلى ليون والي."

قالت ترودي أثناء تناول الغذاء:

"لا يزال الأمر كله يخبرني. لا يبدو إطلاقاً أن ليون من الصنف الذي يعتمد إيلامك على هذا النحو. ان تأسوس كثير الإعجاب به."

إيلام؟ إنه تعبير مخفف لوصف معاملة ليون إياها في بعض المناسبات. وتدقت الذكريات. كانت هناك أوقات بدا فيها أن ليون لا يريد شيئاً أكثر من أن يكون معها ومع الطفلين. وتذكرت مشاعرها نحو زوجها وهي تتطور ببطء، ورغم ارادتها، تقارباً حتى شعرت بسعادة ما كانت تعتقد أنها ممكنة. ثم كان إعطاء لوحاتها ليو. كانت هذه هي البداية...

اقتحم أفكارها صوت تشيبي:

"هل أستطيع الخروج للرياضة بعد الغذاء؟"

فرفعت بصرها واينسمت له. ثم سألت صديقته:

"أيناسبك هذا؟"

قالت ترودي:

"تماماً، فأنا أحب المشي."

كانت الساعة الرابعة حين عادوا إلى البيت، فإذا ليون يجلس في السيارة أمامه، ووجف قلب هيلين لكنها حاولت أن يكون صوتها رصيناً وقالت:

"إنك مبكر يا ليون."

وغادر السيارة ووقف يتأمل هيلين وعلى وجهه أغرب تعبير.

"إنني أنتظر منذ أكثر من ساعتين."

أمسكت فيونا بيده، وألصقتها بوجنتها، وقالت:
"كل هذه المدة يا عمي ليون؟ كنا نتريض فمشتينا أميالا".
وسأله تشيبي:

"هل جئت لتضطحبنا الى البيت؟ قالت العمة هيلين أننا
سنعود في القطار".

غمغم ليون وهو لا يزال يرمقها بتعبير عجيب:
"إن ما تقوله العمة هيلين يختلف عما أقوله. أحيانا يخطر على
بالها أغرب الأفكار يا تشيبي".

ما كانت لتخطيء المعنى العميق وراء تلك الكلمات،
فحدقت فيه، وهي تظن الى اهتمام ترودي فتشعر بالحرج.
وأخيرا قالت ترودي، وهي تتقدمهم الى السلم:

"ألا ندخل؟ إنني أموت عطشا".

وذهبت الى المطبخ فورا لتعد المشروبات. ودخل الآخرون
غرفة الجلوس. ودعا ليون الطفلين للذهاب الى اللعب،
ولكنهما ارتحيا في مقعدين متعبين. وقالت هيلين:

"إنهما متعبان حقاً".

وصحبت عندما ظهرت على شفطي ليون لمسة حزم. وتذكرت
مسلكها ذلك الصباح، فإذا برجفة تنتابها فجأة، ما كانت تود
أن تخلو مع زوجها. قال، وقد سمح للطفلين بالبقاء:

"من أخبرك بأنني فرطت في لوحتك؟"
بدا صوتها عالياً مضطرباً وهي تقول:

"مصفقة الشعر في القرية... ما كنت أصدق هذا".
قال في لوم:

"كنت أظنك فوق الاكتراث بالشائعات. هل صدقت أنني
أفارق اللوحة وقد قلت أنني أريدها في مكتبي".

ابتلعت هيلين ريقها بعناء. كان ثمة خطأ في الامر، فبرغم
بقاء اللوم في عيني ليون، سرى خللها وميض من حنان.
وقالت:

"لكنها ليست في مكتبك".
لا بد أن أصبح قولك يا عزيزتي، فهي في مكتبي".

اتخذت خطوة قصيرة نحوه، وقالت:
"ولكن... لكنها لم تكن... إذا لم تكن أعطيتها إياها، فأين
كانت؟ ظننت أنك أعطيتها إياها لأن... لأن..."

وأمسكت عندما انتبهت الى أن الطفلين يصغيان اليها.
قال متجاهلاً آخر كلماتها:

*الايضاح بسيط يا عزيزتي. لو أنك سألتني عندما سمعت أول
مرة، لوفرنّا علينا قدراً كبيراً من الشقاء..."

ومضى يخبرها بأن الرجل المهتم بشراء الطاحون القديمة
أتى اليه أصلاً من طرف بولا. وعندما رأى لوحة الطاحون في
مكتبه، أراد أن يشتريها ولكن ليون رفض طبعاً. إذ ذاك
سألني إذا كنت أجعلك ترسمين لوحة أخرى له، ولكني كنت
أنانياً، أريد أن أقنتني اللوحة الوحيدة من رسم زوجتي. غير
أنني أعرته إياها ليصطنع نسخة منها. وكانت بولا تعرف
رساماً مستعداً لذلك، وهكذا كانت اللوحة عندها. لكنني
استرجعتها وهي الآن في مكان مشرف في مكتبي.

وهز رأسه في أسى وقال:
"كيف تصدقين ذلك عني يا هيلين؟"

أخذت تعتصر يديها في حيرة، وقالت:
"لست أدري، إنها لم تكن في مكتبك عندما كنت فيه منذ
يومين، فلما قالت ايليني أن بولا تقتنيها، استنتجت بطبيعة
الامر أنك أعطيتها اليها".

وتطلعت اليه، وفي نظراتها بقية من عدم الاطمئنان،
وقالت هامسة:

"لديك تفسير لهذا، ولكن... بقية الأمور الأخرى..."
وأمسكت وهزت رأسها. أي عذر لديه لاعطائه بولا خمسة
آلاف جنيه. فأجاب بلطف:

"لدي تفسير لكل شيء".
تطلعت اليه بنظرة متسائلة، وهي تقول:

"كل شيء يا ليون؟"
فغمغم بتفكه حنون:

"إنك رعناء صغيرة يا هيلين؟ ما الذي يجب أن أفعله معك؟"
فرمقته بتوسل قائلة:

"ما التفسير يا ليون؟ كنت تعسة جداً".
لم يتكلم لبرهة، وعيناه شردتا الى الطفلين، ثم قال:

"هيا الى السيارة... أنتم الاثنان".
انزلقت فيونا عن مقعدها، وأمالت رأسها لتتطلع ليه،
وقالت:

"هل ستضطحبنا الى البيت يا عمي ليون؟"
فسرى في عينيه أعجب تعبير - وقال بصوت خافت:

"نعم يا فيونا، اذهب الى السيارة يا تشيبي".

وراقبهما حتى خرجا - ثم قال لهيلين:
"هيا يا حبيبتي، حان أن ننطلق."
"ولكنك قلت أنك ستفسر الأمر يا ليون."
فابتسم بحنان، وقال:

"ليس هنا يا حبيبتي، عندما نصل إلى البيت، ويأوي الطفلان
إلى النوم."

هتفت ترودي بعد لحظة، وهما يستأذنان فجأة للانصراف:
"لا أطيق هذا! ما الذي يجري يا ليون؟ لا يحق لكما أن تنصرفا
هكذا، وتتركانني مشغولة البال."

فقال ونظرته الحنون لا تفارق وجه هيلين:

"كانت هيلين مضطربة الفكر حين وصلت إلى هنا."
تدافعت الدماء إلى وجه هيلين. وحاولت أن تستوقفه،
فقالت ترودي:

"والآن تتعجلان الانصراف بدون أن تخبراني بشيء، رحمة
بامرأة يستبد بها الفضول يا ليون!"
قال:

"إننا ذاهبان إلى البيت لنسوي بضع حالات سوء الفهم."
ثم أردف:

"أما ذلك العشاء... فأرسلنا لنا دعوتكما عندما تشاءان."
ونقلت ترودي بصرها بينهما، وابتسمت راضية، وقالت:
"سنجعل منه احتفالا."

☆ ☆ ☆

كانت ثرثرة الطفلين هي كل ما في السيارة من صوت لبرهة
طويلة، ثم قالت هيلين بفتور، لمجرد تبديد الصمت:
"تركت المكتب مبكرا."

ولم يبد أنه لاحظ الفتور، وقال:

"تركته قبل مجيئي بوقت أطول، كان علي أن أحسم مهمة."
وعاد الصوت ثانية، ثم قالت متهيبة:

"قلت إنك ستفسر يا ليون."

قال:

"ما لدي لا يجوز قوله أمام تشيبي وفيونا."

كانت في صوته خشونة مفاجئة، فالتفتت إليه في دهشة.
كان فمه ينم عن اصرار فاستلقت في مقعدها ولم تزد.

كانا في الشرفة حين أخبرها بما عاناه منذ يوم ظهور أم
الطفلين وتهديدهما بأن تأخذهما منه. ومضى يقول:

"رايت على الفور أنها لا تكن اهتماما حقيقيا للطفلين، ولا
تبقي سوى المال. وأحسبني كشفت موقفتي، فرائت مدى قيمة
تشبيبي وفيونا لدي، فظلت تجادل بصدد الجبلغ... تغيير رأيها
باستمرار طمعا في المزيد. على أنها قررت أن ترضى بخمسة
آلاف... مع أنني كنت مستعدا لأن أزيد لو ألت."

ساد صمت لا يعكره سوى النسيم يتخلل سقف النخيل على
حافة الحديقة... ثم قالت هيلين في جزع:

"ليس لها أن تأخذهما يا ليون... ليس الآن."

فهز رأسه في حزم قائلا:

"كان هذا هو المصدر الحقيقي لقلقي، لكنني رفضت أن
أعطيها أية نقود ما لم توافق على أن أتبناهما قانونيا. وقد
سويتنا هذا اليوم. كلا يا عزيزتي، ما من أحد سياخذهما منا
أبدا."

وشدها إليه، فأحست مرة أخرى بفيض حنانه وقوته.
فقالت بشعور بالذنب:

"ليتك تجعلني أشاطرك متاعبك."

ثم أردفت بتدم صادق:

"لكم كنت حمقاء يا ليون! لا أدري كيف تستطيع أن تصفح
عني."
قال:

"صفحت عني مرة. أتذكرين؟ لم يكن الأمر كما ظننت قط يا
عزيزتي ما كان ذلك إلا لأنني أحببتك."

وأقصاها عنه قليلا ليتأملها بلفهة، وهو يقول:

"هل تصدقينني يا هيلين؟ لا بد..."

"إنني أصدقك... أوه يا ليون، لماذا لم أعرف عندئذ."

قال:

"بسبب جرحك القديم. اعتقدت أن الرجال سواء، وهذا أمر
طبيعي."

ومرت برهة طويلة، قبل أن يقول في دعابة رقيقة:

"هناك مسألة بسيطة أخرى، يا حبيبتي الحمقاء الصغيرة.
اتهممتني بالذهاب لفداء خلوي مع بولا. إنها تباع

"ولكني اعتقدت أنك ستتركيني، فلزمت الحرص والحذر، لا
أجرؤ على أن أثير عداؤك، أو أجعلك غير راضية عن حياتك.
كم كنت أخشى أن أفقدك!"
وضعا اليه، وحمل اليها النسيم عبير الصنوبر، وكان
الصمت شاملا، فهمست:
"لن تفقدني أبدا يا ليون. إنني لك إلى الأبد!"

عقارات صغيرة، وكلفتها بالبحث عن شيء للعملة كريسولا.
وكانت لديها قائمة طويلة، وأؤكد لك يا حبيبتي بأن الطواف
بالأماكن لاختيار أحدها بالثمن الذي أرادت عملي دفعه، لم
يكن نزهة أو غداء خلويا."

ظلت هيلين صامتة، ورأسها مطرق. وبعد برهة، وضع
أصبعها تحت ذقنها، فاضطرت إلى أن تتلقى نظرتها.

عادت تقول بصوت خفيض، متحشرج:
"لا أدري كيف تستطيع أن تغفر لي. لقد مضيت أتسرع في
استنتاجاتي."

فقال:
"وكذلك فعلت أنا في الواقع... لكنني كنت شديد الغيرة من
رجلك الانكليزي."

"إنه ليس رجلي الانكليزي... فلا داعي أبدا للغيرة."
"سبحت معه، فجن جنوني..."
"السباحة؟ كيف عرفت هذا؟"
قال:

"تركت حقيبتك في الشرفة وفيوتا - كما تعلمين - لا تقاوم
العبث بأي شيء."

وسكت فكدت هيلين تجفل إذ اشتدت قبضته على ذراعها،
وهو يسترسل:

"طاش صوابي عندما أخرجت ثوب السباحة المفضل. أدركت
أنه روبرت لأنك لم تكوني تعرفين سواه."

"لماذا لم تخبرني بهذا في حينه يا ليون؟ أعني أنك لم تذكر
ذلك إلا هذا الصباح."

قال:
"أعترف بأنني كنت أريد أن أحاسبك على قضائك بعد ظهر
ذلك اليوم معه، ولكنني لم أجسر."

وارتجف، فاشتدت ذراعها حوله في حب، بينما واصل
حديثه:

"كنت أعرف يا حبيبتي أنه لو قدر لزوجة أخي أن تأخذ
الطفلين، فستكونين في حل من أن تتركيني، لأن الطفلين
وحدهما هما اللذان أبقياك هنا."

بادرت بسرعة:
"كلا... كلا يا ليون... ما كنت لأتركك أبدا يا حبيبي..."

فلم يكن هناك داع لجزعك..."